الأهرام مركز الأهرام للترجمة والنشر

إحسان عبد القدوس

كانت صعبة .. ومغرورة

كانت صعبة ومغرورة ..

كان المعروف عن ناهد أنها فتاة صعبة .. وكان أبرز ما تعرف به أنها مغرورة .. لم تكن فى منتهى الجمال ولكنها كانت جميلة .. ولم تكن فى منتهى الذكاء إلى حد العبقرية ولكنها كانت ذكية .. ولم تكن فى منتهى الثراء ولكنها لم تكن محتاجة .. ومهما كان رأى الناس فيها فقد كانت معتدة بنفسها إلى حد أن تضع نفسها فوق آراء كل الناس ..

وكانت معتدة بنفسها مستقلة بذاتها حتى بالنسبة لأبيها وأمها .. فقد كان من المستحيل أن يفرضا عليها أمرا ولكنها عودتهما على أن يحاولا اقناعها بما يريدان .. وعودتهما على أن يقبلا اعتذارها إذا لم تقتنع .. ففى التعليم مثلا لم تكن تخضع للمدرسة التى يختارها لها والدها حتى منذ أن كانت صغيرة .. إنها هى التى تتعلم وليس والدها .. ومن حقها أن تكون هى التى تختار ما تريد أن تتعلمه وتختار المدرسة التى تتعلم فيها .. وكانت تنتقل من مدرسة إلى مدرسة ثم اختارت بعد أن شبت أن تلتحق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية رغم أن والدها لم يكن يستطيع أن يرى لها مستقبلا من وراء هذه الكلية .. ولكنه استسلم فقد كانت دائما ناجحة فى تحقيق ما تختاره .. وقد نجحت فى التعليم العربى .. والتعليم الفرنسى .. والتعليم الانجليزى .. ثم التحقت بمدرسة للتعليم الألمانى .. إنها تختلف عن كل البنات .. فليس لها طبيعتهن .. ولا دوافعهن وهوايتهن .. وكل ما يميز شخصيتها هو تفرغها للقراءة والدراسة .. إنها تصمم على أن تبقى وحدها مع كتاب على أن تذهب فى زيارة .. أو تلبى دعوة إلى حفل .. كأنها تضع نفسها فوق المجتمع كله مع احساسها بأنها أرقى وأسمى من هذا المجتمع ..

وحدث مثلا وهى فى السابعة عشرة من عمرها أن قررت أن تقوم وحدها برحلة إلى انجلترا وفرنسا . . وجن الأب . . كيف يترك ابنته الشابة تسافر إلى اوربا وحدها . . ولكنها مصممة . . انها تريد ان ترى على الطبيعة ما قرأته فى الكتب حتى تزداد علما . . ثم لماذا يخاف الآباء على بناتهم من السفر إلى الخارج وحدهن ولا يخافون على الأولاد . . إن شخصية البنت لا تقل عن شخصية الولد لمجرد ان هذه بنت وهذا ولد . . ثم أن شخصية البنت لا تختلف لمجرد الابتعاد عن اهلها فى بلد غريب . . وإذا كانت هى معرضة للانحلال أو للخروج عن مبادئها وهى حرة فى لندن او فى باريس . . فهى ايضا معرضة للانحلال وضياع المبادىء وهى فى مصر بين اهلها . . بل وهى فى داخل بيتها . . اى بيت العائلة . . واستطاعت ناهد باصرارها أن تسافر وحدها . . وعادت بعد شهرين دون أن تحمل أى هدية لأى فرد من افراد العائلة . . إنها لم تسافر لتطوف بالدكاكين . . كانت متفرغة لمشاهدة ودراسة المجتمع الآخر . . وكل ما فى دكاكين أوربا تستطيع أن تجده فى بعض دكاكين مصر . . وكان اكثر ما يحير العائلة فى ناهد أنها لا تحس ابدا بحاجتها إلى رجل . . وكانت على صلة بكثير من الطلبة والأساتذة الذى تلتقى بهم فى دراستها . . ولكن لم يعرف عنها أبدا ارتباطها بواحد منهم . . ولا بواحد من شبان المجتمع الذى يحيط بها . . ليس لها قصة حب . . ولا حتى مجرد قصة تبادل أعجاب . . حتى لو تمناها رجل فهى لم تتمن ابدا أى رجل . . حتى فكرة الزواج التى تصحب كل فتاة منذ تعى انوثتها لم تطرأ أبدا على ذهن ناهد . . وتهرب منها فى أى حديث حتى ولو كان حديثا ضاحكا . . إنها لا تريد الزواج ولن تتزوج . . لعلها فاقدة لأنوثتها . . لاتستطيع أن تضع نفسها فى صورة زوجة أو صورة أم . . حتى لمجرد اشباع طبيعتها كأنثى . . أو لعل غرورها جعلها تعتبر نفسها فى مستوى لا يمكن أن يشاركها فيه أى رجل . . ليس هناك رجل يمكن أن تكون له أو يمكن أن يكون لها . . وعجزت كل المحاولات عن اقناعها بالزواج . . حتى اضطرت العائلة ان تقبل زواج اختها الصغرى قبلها رغم التقاليد التى تفرض زواج الكبرى قبل الصغرى . .

وناهد الآن فى الخامسة العشرين من عمرها . . ولم تتزوج . . وقد توفى أبوها وامها وهى تقيم فى بيت العائلة مع اختها الصغرى وزوجها وأولادها . . وتقيم معهم مستقلة بنفسها استقلالا كاملا . . ولا يحاول أحد أن يتدخل فى حياتها-ولا حتى مجرد الكلام فى البحث عن زوج لها . . كأنها تعيش فى بنسيون . . ولكنها تحب كل من يقيم فى هذا البنسيون وكلهم يحبونها . . وقد رفضت أن تكون موظفة فى الحكومة بعد تخرجها من الجامعة وعاشت تتنقل فى مجالات كثيرة للعمل . . وتتنقل لا لأنها تواجه مشاكل فى أى عمل ولكن لمجرد انها تريد أن تجرب . . وكلما انتهت من تجربة انتقلت إلى تجربة أخرى . . إنها تهوى التجربة . . والتجارب هى أساس المعرفة اكثر . .

إلى أن كان يوم مرت خلاله ساعات فراغ كانت تقضيها فى حجرتها بالبيت تقلب فى محتويات دولابها . . ووقعت يدها على سوار عريض من الذهب المحلى بفصوص الماس والياقوت . . انه سوار كانت تملكه أمها ووقع فى نصيبها من الأرث . . وأخذت تقلبه أمام عينيها وهى تتساءل عن مدى حاجتها إليه . . إنها لن تضعه فى رسغها أبدا وتتزين به . . فهو كبير عريض لا تطيق أن تظهر به . . كأنه فضيحة أرستقراطية لامرأة تتباهى بثرائها . . ان كل ما تضعه فى رسغها سوار ذهبى رفيع عادى تحتفظ به بحكم العادة منذ كانت صغيرة . . أو ربما لتحتفظ بمظهر بسيط يثبت أنها انثى . . ولكنها يجب أن تحتفظ بهذا السوار العريض الفاقع اللون ولو فى دولابها احتفاظا بذكرى أمها . . ولكن . . لعل من الأجدى أن تحتفظ بذكرى امها فيما تمارسه وتعيش فيه فتبيع هذا السوار وتشترى بثمنه مجموعة من الكتب تذكرها صفحاتها بأمها . . أو تأخذ الثمن وتنفقه فى رحلة تقوم بها إلى أمريكا . . إنها لم تدرس بعد المجتمع الأمريكى وسيكون لأمها فضل تمكينها من هذه الدراسة وتوفيرها لها . .

وحملت السوار فى حقيبتها وذهبت إلى دكان عبد الله نور الدين الجواهرجى . . لقد سبق وذهبت إلى هذا الدكان أكثر من مرة مع

والدتها . . انه جواهرجى العائلة . . وهناك . . التقت لأول مرة بشريف الهنداوى يستقبلها كأحد العاملين بالدكان . . انه شاب وسيم . . يحمل وجهه الأبيض من خلال عينيه الملونتين ملامح جادة محترمة تحيط بابتسامة ضيقة هادئة . . ولا تدرى لماذا أطالت النظر إليه . . ربما لأنه يستطيع أن يفرض احترامه بمجرد وجوده . . وربما لأنه لم يهلل فى استقبالها كعادة التجار فى استقبال الزبائن . . ووجدت ابتسامة من ابتساماتها النادرة تتعلق بشفتيها وهى تقول :

ـ لقد ترددت كثيرا على الدكان ولم أرك من قبل . . هل جئت إليه حديثا . . وقال وقد اتسعت ابتسامته قليلا :

ـ منذ حوالى عام . . وأتمنى أن يستمر عملى مع عبد الله بك نور الدين طوال العمر . . وابتلعت ابتسامتها ولم تحاول أن تسأله أكثر كأنها تنبهت إلى الاحتفاظ بشخصيتها الجادة . . وفتحت حقيبتها وأخرجت السوار العريض وناولته له قائلة :

ـ كم يساوى هذا السوار . . أريد أن أبيعه . .

والتقط منها السوار وأخذ يقلبه بأصابعه . . ثم وضع نظارة صغيرة كأنها ميكروسكوب على أحدى عينيه وأخذ يحلق فى كل فص من الفصوص الماسية المعلقة بالسوار ثم رفع الميكروسكوب وفرد السوار أمامه فى حرص شديد كأنه يخاف على شىء عزيز وقال لها :

ـ هل أنت فى حاجة إلى بيعه . .

وقالت وقد عادت ابتسامتها إلى شفتيها :

ـ انى لست فى حاجة ماسة إلى ثمنه . . ولكنى لست فى حاجة إليه . .

وقال فى لهجته الجادة المهذبة :

ـ كيف حصلت عليه ؟

وقالت فى دهشة لسؤاله وفى لهجة كأنها تتحداه :

ـ لقد ورثته عن المرحومة أمى . .

وقال كأنه يتطوع لانقاذها فى رفق :

ـ لا بد أن المرحومة والدتك ورثته هى الأخرى عن أمها . . ان هذا السوار تحفة قديمة غالية . . وأنصحك أن تحتفظى به . . ولا تبيعيه إلا مضطرة . . فثمن هذه التحف يرتفع من يوم إلى يوم . . كما يرتفع سعر الماس والذهب . . ان مجرد الاحتفاظ به يعطيك أكثر مما يعطيك البنك من أرباح لو وضعت فيه ثمنه . . أى أن الثمن الذى تبيعين به اليوم يمكن أن يرتفع إلى الضعف فى العام القادم . .

وقالت فى دهشة يشوبها الشك :

ـ غريبة . . لماذا لا تشتريه أنت اليوم وتحتفظ به حتى يرتفع ثمنه إلى الحد الذى يغريك ببيعه . .

وقال وفى عينيه نظرة حانية كأنه يشفق عليها :

ـ لأنى فهمت أنك زبونة قديمة لنا . . وصاحب المحل مسئول عن مصالح زبائنه لا على مجرد الكسب من ورائهم حتى يحتفظ بثقتهم . .

وقالت كأن دهشتها تدفعها إلى التحقيق معه :

ـ هل أنت أصبحت تعتبر من أصحاب المحل . .

وقال من خلال ابتسامته :

ـ تقريبا . .

وادارت عينيها عنه حتى لا تبدو كأنها تعلقت بوسامته وقالت كأنها تهرب من سؤاله عن شخصه :

ـ إنى لا افهم حتى الآن نصيحتك لى بأن احتفظ بهذا السوار ولا ابيعه حتى لو كنت أبيعه لك . .

وقال فى هدوء الاستاذ :

ـ ان رأس المال السايب يحتاج إلى المعاملات المستمرة . . أى إلى توالى البيع والشراء . . فالرجل الذى يملك مزرعة دواجن محتاج إلى أن يبيع انتاجه قبل أن يموت الدجاج . . ولكن راس المال العينى لا يفرض التعامل به ولكنه يعتمد على دراسات تحيط بكل صفقة وتحدد قيمتها . . كأن يتجمع رأس المال فى كمية من السبائك الذهبية . . أو من الجواهر . . أو أن يكون مجمدا فى قطعة أرض . . لذلك فصاحب راس المال يعتمد على دراسة السوق قبل أن يقرر بيع رأسماله أو الاحتفاظ به . . وقد وصل اصحاب الملايين العرب إلى شراء أراض قاحلة فى جزر بعيدة جرداء تقع فى المحيط الأطلنطى أو المحيط الهادى . . ودافع الشراء هو ادخار رأس المال وهم واثقون بأن هذه الجزر ستعمر مع الوقت وتزدحم بالسكان ويرتفع ثمن الأرض فيها إلى عشرات أضعاف الثمن الذى اشتراه بها أى كأنه يدخر رأسماله فى بنك خاص ترتفع أرباحه عن أى بنك من البنوك المعروفة . .

وكانت تستمع إليه بطبيعتها الدراسية التى تدفعها إلى هواية جمع المعلومات . . وقامت من المقعد الذى كانت تجلس عليه قائلة :

ـ إنى مازلت فى حاجة إلى المزيد من الشرح حتى اقتنع . . وسأمر عليك يوما آخر . . وهمت ان تنصرف وهو يمد إليها يده بالسوار قائلا :

لا تنسى السوار . .

وترددت لحظة ثم قالت :

ـ احتفظ به لديك إلى أن أستقر على مصيره . . أما أن أصمم على بيعه أو تكون انت قد غيرت رأيك وقررت شراءه . .

وقال كأنه يتعلق بها :

ـ انتظرى لأكتب لك ايصالا . .

وقالت بسرعة وهى تبتعد :

ـ سأمر عليك . .

وقد نشأت على الثقة فى التعامل مع عبد الله نور الدين الجواهرجى صاحب المحل من طول المدة التى جمعت عائلتها به . . ولكن . . لعلها اكتسبت مزيدا من هذه الثقة بعد أن التقت بشريف الهنداوى الذى أصبح يعمل معه ولذلك تركت له السوار دون أن تنتظر أن يكتب لها ايصالا . . ولم تسأل نفسها من اين اكتسبت ثقتها بشريف . . انه مجرد احساس . .

وقد قضت يومها وهى تراجع دراستها عن التصرف برأس المال . . وتبحث عن كتب لم تقرأها من قبل . . انها تحس بأنها تدخل فى عالم جديد . . ولاتفسر هذا الاحساس بأكثر من هوايتها للدراسات . . لم تحس بأنها تقدم على تجربة جديدة أوحت لها بها مجرد رؤية شريف . .

وفى اليوم التالى اتصلت به بالتليفون وقالت له إنها فى حاجة إلى حديث طويل لتستكمل اقتناعها الذى يخص التصرف فى السوار . . وهى لا ترى أن لقاءها به فى الدكان يكفى لتبادل هذا الحديث لذلك فهى تدعوه لتناول الشاى معها فى بيتها . .

وهى قد تعودت أن تدعو بعض الأساتذة والزملاء الذين يعملون معها إلى البيت . . لم تكن الدعوة شيئا جديدا عليها أو على أختها التى تعيش معها . . وان كان معظم الذين سبق أن دعتهم قد أوقفت دعوتهم وابتعدت

عنهم . . لأنهم بدأوا يستغلون هذه الدعوة للتعامل معها كأنثى . . ويحاولون الوصول معها إلى ما يريده الرجل من الانثى . .

وقد جاء اليها شريف وجلس معها هادئا مهذبا من خلال وسامته . . كانه يعتبرها دعوة عادية يوجهها الزبون إلى التاجر الذى يتعامل معه . . وقد بدأ بأن قدم لها ايصالا يضم وصفا لكل تفاصيل السوار الذى تركته له . . وهو يقول :

ـ من الأفضل ان تحتفظى بالسوار . . رغم اعتزازى بثقتك فى عبد الله بك وفىّ . .

واستمر الحديث بينهما طويلا حول أسرار سوق المجوهرات وسوق التعامل برؤوس الأموال . . ولكنه لم يعد حديثا بين تاجر وزبونة . . ولكنه اصبح اقرب إلى حديث بين صديقين لا يحمل أى كلمة تخرج بهما عن مجرد بداية صداقة . . ولكنها قالت له وهى تودعه :

ـ سأراك مرة ثانية حتى نستكمل الحديث . .

وقال مع ابتسامته الهادئة ودون أن تبرق عيناه بأى أمل يتعدى الصداقة :

ـ أرجو ان تسمحى لى فى المرة التالية بأن أكون أنا صاحب الدعوة . .

وقالت فى بساطة دون أن تحس بأنها تعرضت للتجرؤ عليها :

ـ أين

قال فى بساطة :

ـ اما فى بيتنا لتلتقى بأبى العجوز وبأختى الكبرى وأولادها الذين يزحمون البيت . . واما فى أى مكان تختارينه . .

وقالت فى بساطة دون أن تحس بجرأتها :

ـ لنؤجل زيارة البيت ونلتقى فى أى مكان لتناول الشاى . .

والشىء الذى يعتبر جديدا عليها أنها بعد أن خرج شريف اندفعت إلى اختها وأخذت تحدثها عنه وتروى لها عما كان بينهما من مناقشات . . لم يكن يهمها أن تشرك أختها فى أى تصرف خاص بها . . وبعد أن لبت دعوة شريف لتناول الشاى فى محل عام . . عادت تروى لأختها أيضا تفاصيل مادار بينهما من حديث . . رغم أنه لم يكن فى حديثهما شىء أكثر من تبادل المعلومات الدراسية عن كثير مما فى الحياة . .

وبعدها بأيام كانت أختها مع زوجها مدعوين إلى سهرة فى الخارج . . وعادت فى ساعة متأخرة من الليل وفتحت الباب ودخلت وهى تصيح بأعلى صوتها منادية . . ناهد . . ناهد . .

وكانت ناهد نائمة فاقتحمت أختها غرفتها وأخذت تهزها فى عنف حتى فتحت عينيها وقبل أن تعتدل جالسة صاحت فيها اختها :

ـ ماذا تعرفين عن شريف الذى تدعينه ولا تكفين عن الحديث عنه . .

وقالت ناهد وهى تتثاءب :

ـ ماذا تريدين أن أعرف عنه . .

وصاحت أختها :

ـ هل تعرفين أنه يهودى . . من أب يهودى وأم يهودية . . ومن عائلة يهودية معروفة . .

وابتلعت ناهد تثاؤبها وقالت فى صوت حشرجته الصدمة :

ـ من اين جئت بهذا الكلام ؟

وعادت الأخت تصيح فى ثورة قرف :

ـ سمعت . . وعرفت . . وتأكدت . . وقضينا طول السهرة ونحن نتحدث عنه . . وطبعا لم أقل أنها مصيبة وقعت على رأسك . .

وقالت وهى تقبض على اصابعها التى ترتعش :

ـ ولماذا تعتبرينها مصيبة . .

وقالت الأخت وهو تلوى شفتيها :

ـ لأنه أول رجل فى حياتك أحس كأنك تريدينه لك . . وسأتركك تبحثين عن الحل . .

وابتعدت الأخت خارجة من الحجرة . . وناهد جالسة مبحلقة العينين فى الفضاء . . انه يهودى . . لقد كانت قد نسيت أن فى مصر أو أنه كان فيها يهود . . أين هم يهود مصر . . ولكنها يجب ان تعرف الآن أن فى مصر يهودا . . وهم يهود مصريون . . وظلت طوال الليل جالسة مبحلقة العينين وهى تستعرض كل لقاء كان بينهما . . وكل كلمة تبادلاها . . لماذا لم يقل لها انه يهودى . . ولعل هذا الترفع والسمو فى التعبير عن العلاقة التى جمعتهما ليس من طبيعة شخصيته ولكن لمجرد أنه يهودى ومتأكد أنها يمكن أن ترفضه . . ان اليهودى ثعلب شاطر دحلاب يتسلل داخل فريسته حتى يستولى عليها ويأكلها . .

وما كاد الصباح يهم على الدنيا حتى اتصلت به فى التليفون وقالت له فورا :

ـ أريد ان أراك . .

قال فى هدوء وكأنه لم يفاجأ :

ـ متى ؟

قالت فى حدة :

ـ الآن . .

قال كأنها ترى ابتسامته تتسع فى سماعة التليفون :

ـ لنتبادل أجمل صباح الخير . . أين . . هل أمر عليك الآن . .

قالت فى عنف :

ـ لا . . فى نفس المكان الذى سبق أن التقينا فيه . .

والقت سماعة التليفون وهو يقول حاضر . . دون أن تزوده بكلمة حلوة . .

وأحست بمجرد أن التقيا كأنها تهم بالابتسام تحية لوسامته . . وقالت فورا قبل أن تستريح فى جلستها :

ـ هل أنت يهودى ؟

واتسعت ابتسامته الهادئة كأنه كان فى انتظار هذا السؤال وقال فى صوت ثابت .

ـ فعلا . . أنا يهودى . .

وقالت كأنها تهم أن تصرخ فى وجهه :

ـ ولماذا لم تقل لى . .

وقال دون أن تهتز نبراته :

ـ لم تمر بأحاديثنا مناسبة تدفعنى لأن أقول لك أنى يهودى . . أو تقولى لى أنك مسلمة . .

وقالت فى حدة :

ـ لم يكن فيك ما يدفعنى إلى هذا التساؤل . . حتى اسمك شريف الهنداوى . . اسم عام لا يدفع إلى الشك . .

وضحك رغم انه ليس من عادته الضحك بصوت عال وقال :

ـ اننا نتشبه بنجوم السينما الذين يختار كل منهم لنفسه اسما يجذب الجماهير . . وأبى أسمانى باسم شريف لأنه اسم فى صالح العمل . . مادمنا نعمل فى مصر . . واسمى الكامل المكتوب فى شهادة ميلادى لا يعرفه أحد . . هو . . شريف كوهين الهنداوى . . أى أنى لم أخف إلا فقرة واحدة من اسمى . .

قالت وكأنها تراجع نفسها :

ـ كان يجب أن اتساءل عن الأسباب التى دفعتك إلى الاشتغال بتجارة الذهب والمجوهرات . . وربما كنت عرفت من خلال هذا التساؤل بأنك يهودى . . فهى المهنة التى تجمع اليهود . .

وقال فى جدية كأنه يلومها :

ـ ليس كل الجواهرجية والمشتغلين بتجارة الذهب يهودا . . وليس كل اليهود يعملون بهذه التجارة . . وليست هناك مهنة مقصورة عليهم . . إنهم يعملون فى كل المهن كباقى أفراد الشعب . . وبينهم الغنى جدا والفقير جداً . . وبينهم المتعلم جدا والجاهل جدا . . ان اليهود هم مجموعة تمثل كيانا فى أى شعب . . ويجمعهم كلهم أنهم مواطنون . . فاليهودى فى فرنسا فرنسى . . وفى انجلترا انجليزى . . وفى الهند هندى . . وفى مصر مصرى . .

وقاطعته قائلة فى سخرية :

ـ وفى اسرائيل مجرد اسرائيليين .

وقال مستطردا كأنه لم يفاجأ بهذه المقاطعة :

ـ فعلا . . كأى طائفة يغلبها التطرف للاستقلال بنفسها واقامة دولة خاصة بها . . كما يحاول شعب شمال ايرلندا الاستقلال عن ايرلندا الجنوبية وعن بريطانيا . . وكما تحاول طائفة السيخ اقامة دولة مستقلة عن الهند . . و . . و . . عشرات من الطوائف تحاول أن تقوم كدولة . . ورغم ان التطرف اليهودى حقق اقامة دولة اسرائيل إلا أنه لا يزال بين اليهود من يرفض هذا التطرف . . ويغلبهم انتماؤهم للوطن الذى يعيشون فيه . . وقد كان أبى كوهين الهنداوى يهوديا جدا . . ولكنه رفض أن يترك مصر . . أو يهاجر إلى اسرائيل مع المهاجرين . . انه لا ينتمى إلا إلى محل الجواهرجى الذى يمتلكه . . وهو يملكه فى مصر وهو مصرى . . يهودى جدا ومصرى جدا . . حتى بعد أن أدت السياسة إلى فرض الحصار على كل نشاط يهودى فى مصر . . جمع أبى كل ما يملك من سبائك الذهب والمجوهرات واحتفظ بها فى البيت واغلق الدكان الذى يبيع فيه . . ولم يهاجر مع اليهود المهاجرين . . بقى فى مصر . . وقد تعذب طويلا وهو قابع فى البيت كأنه فقد الحياة . . وان كان قد ضمن ما يكفل حياته وحياة العائلة بفضل ما أدخره ومن خلال اتصالات متباعدة خفية يبيع فيها بعض ما يملكه . . إلى أن تطور الوضع والجو السياسى فى مصر . . وظهر ما سمى بالانفتاح . . وكان أبى يريد أن يعيد فتح دكان الجواهرجى . . ولكنى عارضته . . يجب أن يختار طريقا آمنا فى انتظار مزيد من التطور . . واستطعت ان اتصل بعبد الله بك نور الدين . . إنه جواهرجى مسلم على اتصال قوى بكل رجال الدولة . . واستطعت أن اقنعه بأن أعرض فى دكانه السبائك والمجوهرات التى يملكها أبى مع اقتسام الأرباح . . ووافق . . انها صفقة مربحة بالنسبة له . وهكذا أصبحت من رجال تجارة الذهب والمجوهرات . . لا لأنى يهودى . . بل لأنى نشأت فى هذه المهنة وتلقيت أسرارها من أبى .

وكانت تستمع إليه كأنها تناقش كل كلمة بينها وبين نفسها . وأحيانا تكاد تقتنع وأحيانا ترفض الاقتناع إلى أن قالت له :

ـ على كل حال فقد كنت أحس دائما بأن هناك ما يبعد بيننا رغم الصداقة الكاملة التى جمعتنا . . وكنت أعتقد أن السبب هو حرص كل منا على مراعاة الآخر ولا يريد أن يبدأ قبل أن يبدأ الآخر بما يطور هذه الصداقة . . وكنت أنسب لك انك رجل محافظ تريد أن تؤكد الا مطمع لك فى أى فتاة تقبل صداقتك . . وكنت أتهم نفسى بأنى لا عرف ما أريد . . ولم أتعود أن انقاد لنفسى كأنثى . . وهو ماكان يدفعنى دائما إلى التساؤل عن مصير صداقتنا . . ولكنى أعرف الآن ان ليس لها أى مصير بعد أن عرفت أنك يهودى . . فأنا مسلمة . .

وقال وعيناه تنطقان لأول مرة بالحب ويمد يده يحاول أن يمسك بيدها :

ـ لا شىء يمكن أن يقضى على صداقتنا . . أو يحرمنا ان نتطور بها أكثر . . لا شىء يمكن أن يبعد أحدنا عن الآخر . .

وقالت فى يأس وهى تبعد يدها عن يده . .

ـ ماذا تريد حتى نبقى معا . .

قال وهو يلفها بعينيه . .

ـ المهم هو ما تريدينه أنت . .

وقالت متنهدة بيأسها :

ـ ماذا يمكن أن أريد . .

قال وهو يبعد رأسه ويدير عنها عينيه :

ـ تريدين أن نتزوج . .

وقالت بسرعة وكأنها تشهق :

ـ انك يهودى . .

وقال فى هدوء :

ـ انى أعلم انى يجب أن أعلن إسلامى لأتزوجك . . وأعلم انك لا يمكن أن تقبلى أن نتزوج زواجا مدنيا بعيدا عن الشرع . . والإسلام يحابى الرجل المسلم اكثر من المرأة المسلمة . فيمنحه حق الزواج من امرأة تنتمى لأى دين . . ولكنه يفرض على المرأة الا تتزوج إلا مسلما . . ان أختى الصغرى تزوجت من عربى مسلم دون أن تضطر أن تخرج عن دينها وتنكر انها يهودية . . اما أنا فلا استطيع أن اتزوجك إلا إذا أعلنت إسلامى . . وأنا مستعد . .

وانطلقت كأنها تدافع عن إيمانها بما اكتسبته من دراساتها :

ـ الاسلام لايحابى ولكنه ينظم . . وقد فرض على المسلمة ان تتزوج من مسلم حتى يضمن أن يكون أبناؤها من المسلمين . . فالأبناء ينسبون للأب . . ولايريد لهم الله أن يكونوا ضحية اختيار الأم لأب غير مسلم لم يشتركوا معها فى اختياره . . ولذلك قرر الله أن يحمى للابناء إسلامهم . .

وقال فى هدوء جاد كأنه يبادلها المناقشات الدراسية كما تعودا :

ـ ان التنظيم اليهودى لاينسب الأبناء للأب ولكنه ينسبهم للأم . . أى أن ابناء اختى الصغرى يمكن ان يعتبروا انفسهم يهودا رغم أنهم من أب مسلم ومهما اختلفت الأديان فى تنظيم الحياة فأنا نفسى أقبل أن يكون أولادنا من المسلمين لأنى أنا نفسى سأكون مسلما . . فهل توافقين على أن نتزوج . .

وتنهدت تنهيدة من أعماقها وهامت نظرات عينيها فى الفضاء كأنها تختار مصيرها ثم قالت وهى تنتفض قائمة من مقعدها .

ـ لا ادرى . . دعنى افكر إلى أن أختار . . وتركته مبتعدة دون أن تمد يدها لتصافحة ودون أن تنطق بكلمة وداع . .

وهو يتبعها بعينين جامدتين ووجه مكفهر . . كأنه تاجر يودع زبونا دون أن يتفق معه على اتمام الصفقة . . ولكن يخالجه أمل بعيد فى أن يعود الزبون إليه . .

وانعزلت ناهدّ داخل غرفتها فى البيت أياما تفكر وتحاسب نفسها وتحس كأنها تختار مستقبلها ومصيرها . . انها مفاجأة أقرب إلى الصدمة القاتلة . . لم يخطر على بالها أبدا منذ التقت بشريف أنه يمكن أن يكون يهوديا . . بل انها عاشت دون أن يطرأ على تفكيرها واحساسها بأن فى مصر مواطنين من اليهود . . ربما لأن كل جيلها بدأ وعيه وهو يعتبر أن اليهود هم اسرائيل . . ونحن فى حرب مع اسرائيل . . أى فى حرب مع اليهود . . وتعمدت السلطات المصرية أن تدفعهم إلى الفرار . . ورغم ذلك بقى منهم أفراد يقيمون فى مصر كمواطنين . . آلاف أو على الأقل مئات . . رغم أننا فى حرب مع اسرائيل . . أى مع اليهود . . وكل الدول العربية التى تحارب لايزال يقيم فيها مواطنون من اليهود . . ولكن . . هل المواطنون اليهود يشتركون مع بقية أفراد الشعب فى محاربة اسرائيل . . ان بين أفراد عائلتها أربعة من أبناء عمومتها قاتلوا فى الحرب واستشهد منهم اثنان . . فهل جند شريف أيضا فى الجيش المصرى لمحاربة اسرائيل باعتباره مواطنا مصريا رغم أنه يهودى . . ربما لم يلحقه قانون التجنيد لأنه وحيد أبويه من الذكور . . أو لعل الادارة العسكرية تراعى عدم تجنيد اليهود لعدم ثقتهم فى دوافعهم لمحاربة اسرائيل . . المهم . . كيف تكون عائلتها فى حرب بينما زوجها ـ لو تزوجت شريف ـ لا يقبل أن يحارب معها وغاية ما يستطيعه مهما اشتدت دوافعه الوطنية هو أن يقف على الحياد بين بنى وطنه وبنى دينه . . أى بين مصر واسرائيل . . رغم أن المسلمين والمسيحيين يحاربون بعضهم بعضا باختلاف أوطانهم . . كل وطن يحارب الآخر مهما تعددت أديان المواطنين . .

وكانت تخطر على فكرها تساؤلات لا تستطيع أن تجيب عليها . . فتجرى خارجة إلى المكتبات تبحث عن كتب أو تراجع الصحف القديمة . . انها تعيش فى معركة بين مؤثرات عواطفها الخاصة وبين مؤثرات عواطفها الوطنية . . فهى تحس كأن شريف يشد عواطفها ولكنها تحس أن وطنيتها تشدها أكثر . . إنها لاتستطيع أن تختار بين شريف ومصر . . ولكنها اكتشفت من خلال دراستها الشاملة المستفيضة أن كل الدول العربية عدلت عن طرد مواطنيها اليهود والتخلص منهم . . ونشرت بيانات صريحة تطالب فيها مواطنيها اليهود الذين فروا منها أن يعودوا إليها . . وان كان لم يعد منهم إلى أوطانهم إلا يهود المغرب . . عاد منهم الآلاف . . بينما لم يعد إلى مصر والسودان وبقية الدول العربية سوى مجموعات من الأفراد لا يتعدى عددهم مجموعة أصابع اليد . . لا تدرى لماذا . . ربما لأن حكومة المغرب تبيح لمواطنيها اليهود الذين عادوا إليها حق الاتصال باسرائيل للاطمئنان على أقاربهم الذين تركوهمْ هناك أو للاستمرار فى مزاولة أعمالهم التى تتركز هناك . . وهو مالم توفره لهم باقى الدول العربية . . وسوريا . . وهى من أعنف الدول العربية تطرفا . . لم يعد إليها أحد من اليهود الذين كانوا قد فروا منها ولكن لا يزال يعيش فيها أكثر من سبعة آلاف مواطن يهودى ترفض أن تترك أيا منهم يهاجر أو يفر إلى اسرائيل . . حتى أن اسرائيل أصبحت تطالب سوريا بما تطالب به الاتحاد السوفيتى وهو اطلاق حرية الهجرة لليهود . . وقد تكون دوافع الدول العربية لدعوة مواطنيها اليهود إلى العودة إليها هو اكتشافها أنها كانت قد وصلت إلى منتهى الغباء بدفع هؤلاء المواطنين إلى الهجرة . . لأنها بذلك وفرت لا سرائيل مزيدا من القوة برفع تعداد قواتها العسكرية التى تحارب بها . . فاذا سمحت لهم بالعودة فكأنها تسحبهم من قوات اسرائيل لاضعافها . . أى أن الدافع العربى كان دافعا سياسيا عسكريا ولكنه يشمل أيضا التجرد من التفرقة الدينية واحترام اليهود كاحترام النصارى واحترام المسلمين كمواطنين . . أى أن صديقها شريف اليهودى يعتبر شخصية مصرية كاملة . . لاتلام على صداقتها له كصداقتها لأى شخصية من أى دين . . علاوة على أن مصر خطت خطوة أبعد . . وأصبحت لا تقصر اعترافها على اليهود فحسب كمواطنين أو

كأفراد بل اصبحت تعترف أيضا باسرائيل . . ولم تعد هناك حرب بين مصر ودولة اليهود . .

ثم أن شريف قرر أن يعلن إسلامه لو قبلت أن تتزوجه . . ربما لو تزوجته لرضى الله وافاض عليها من بركاته لأنها ضمت إلى الإسلام مؤمنا جديدا . . وكما يرضى الله عن الأمهات لأنهن يلدن مسلمين . . فقد قدمت إلى الله مسلما لم تلده ولكنها تزوجته .

ولكن . . هل يعلن شريف إسلامه ايمانا بالاسلام ام كمجرد تحايل لاتخاذ الاجراءات التى يفرضها زواجه بها ؟ . . إنها لا تستطيع أن تتدخل فى أعماقه لتكتشف مدى إيمانه أو تضطره لأن يتخذ مظاهر إسلامية وهو كاذب فيها . . يكفى إعلانه بأنه مسلم . . والمسلمون بينهم من لا يراعى فروض إيمانه بالاسلام ويتحدون ما فرضه الله عليهم ورغم ذلك فهم مسلمون لهم شخصياتهم كمسلمين .

ومرت عشرة أيام وناهد ضائعة باستغراقها فى افكارها وتساؤلاتها . . ثم قفزت فجأة وأمسكت بسماعة التليفون والتقطت شريف وقالت له فورا :

- هل لا تزال عند رأيك . .

وقال فى هدوء :

- انى عند رأيى . .

واطلقت كلمات عنيفة كأنها تنطلق من بركان ثائر فى صدرها :

- لقد فكرت . . ووافقت . . تعال لأراك هنا فى البيت . .

والقت سماعة التليفون قبل أن تسمع رده . . والقت نفسها على المقعد منهكة . . يغلبها الاحساس بأنها مقبلة على مغامرة خطيرة . . على تجربة جديدة . . وقد كانت حياتها كلها سلسلة من التجارب . .

وبعد أن هدأت قليلا . . نادت أختها عليها وابلغتها أن شريف سيعلن إسلامه وأنها ستتزوجه . . وصرخت الأخت كأنها فوجئت بأنها ماتت . . ان شريف لن يكون أبدا مسلما . . ولن يعتبره أحد مسلما . . انه يهودى . . وستتزوجين يهوديا . . وسيعتبرك الناس كافرة أو مجنونة . . ويوجهون إليك آلاف التهم ويضيع احترام العائلة كلها . .

وكان زوج أختها أعنف من زوجته فى اعتراضه ورفضه . . وكلاهما رفض رؤية شريف عندما جاء يومها للقاء ناهد . . رغم أن المفروض أنه جاء لاعلان الخطوبة وعندما وصل الخبر إلى بقية أفراد العائلة ثاروا جميعا رافضين . . ولكن ناهد كانت قد عودتهم أن تستقل بنفسها عنهم ولا تسمح لأحد منهم بالتدخل فى شئونها الخاصة . . انها هى التى تتزوج فمالهم ومالها . .

ومرت الأيام بسرعة . . وقد لاقى شريف بعض المتاعب فى إعلان إسلامه . . ربما لأن كل من كان يقابلهم من المسئولين عن اتخاذ الاجراءات كانوا يواجهونه بالشك فى نياته . . لماذا يريد يهودى أن يعلن إسلامه . . وكان دائما لبقا فى كسب ثقتهم . . كان يقول انه مصرى . . ولد فى مصر وعاش فى مصر ولم تظهر عائلته من أيام جده وجد جده إلا فى مصر . . ومصر هى التى تدفعه إلى الاسلام . . وقد وجد نفسه يحفظ تلاوة الفاتحة وكثيرا من آيات القران قبل أن يقرر إعلان إسلامه . . ويتردد على زيارة حى الحسين لا لمجرد تناول طعام الكباب فى مطعم الدهان بل ليكون قريبا من مسجد الحسين . . فهو يحس به كأنه شعار من شعارات وطنية . . وكان فى بعض اللقاءات يزيد المصارحة بأنه سيتزوج مصرية مسلمة . . كأنه لا يريد أن يضبط وهو يستغل إسلامه فى عمل خفى . . وفى النهاية . . ماذا يضير الإسلام بانضمام أى فرد تحت لوائه . . والنيات فى علم الله . . ولذلك تم إعلان إسلام شريف الهنداوى . .

وقد كان شريف خلال تلك الأيام قد زار حاخام اليهود . . وابلغه انه قرر أن يعلن إسلامه . . لا لأن إجراءات الانتقال من دين إلى دين تفرض

ابلاغ وعلم قيادة الدين الآخر . . ولكن لأن شريف لا يريد أن يبدو كأنه يهرب من دينه الذى يجمع كل أهله . . ولكن كل شىء يمكن أن يتم بالمصارحة والاتفاق . . والحاخام يقدر أن الدنيا مصالح . . وقد تكون مصلحة اليهودى أن يدعى الاسلام . . أو من مصلحة مسلم أن يدعى المسيحية أو اليهودية . . ومهما اشتدت المصالح فهى لا تؤثر فى الدين الذى يؤمن به الفرد . . مادام الايمان ليس هو الدافع إلى تغيير دين . . بدين . . لذلك فقد استمع الحاخام إلى شريف فى هدوء . . ولم يجادله أو ينصحه إلا فى حدود ما يفرضه عليه مركزه من رسميات . . وقام يودعه بنفس الحرارة التى كان يودعه بها دائما كلما زاره . . كأنه مطمئن إلى أنه سيبقى يهوديا

ومرت الأيام بسرعة وتحدد يوم عقد القران . .

وكانت ناهد مستعدة أن تترك بيتها وتعقد قرانها بشريف فى أى مكان . . ولكن كان يغلبها تفضيلها أن يعقد القران فى بيتها . . بيت العروس . . حتى لا تفقد شيئا من تقاليد العائلات . . وحتى يكون زواجها صريحا كاملا . . وأختها بدأت تستسلم لا رادتها . . وقبلت هى وزوجها أن يعقد القران فى البيت . . ولكنهما اشترطا الا يوجها الدعوة إلى غريب حتى من أبناء العمومة وأبناء الخيلان . . كأنهما يريدان أن يخفيا فضيحة تمس العائلة كلها . . ولذلك لم يجلس حولها مع زوجها شريف إلا المأذون وأختها وزوجها وأولادهما . . وأفراد عائلة شريف . . فقد صمم على أن يدعو عائلته . . أمه وأبوه وأخته الكبرى وزوجها . . انهم موافقون على هذا الزواج فلماذا لا ندعوهم . . ولكنه لم يدع أخته الصغرى المتزوجة من مسلم . . لأنها تعيش خارج مصر وليس هناك حفل عام كبير يفرض دعوتها وتكليفها بمتاعب السفر ونفقاته . . ان اليهود يقدرون دائما حساب النفقات فى كل مناسبة . .

ولم تكن ناهد قد التقت بعائلة شريف أو عرفت أحدا منهم حتى بعد أن أعلنت خطوبتها إلى ابنهم شريف . . وكانت تفترض أن العائلة كلها قد ثارت على الابن الذى خرج عن ديانتهم وأعلن إسلامه وقاطعته وطردته من

بيتها . . ولعل العائلة ثارت عليه أياما ثم عادت واستسلمت له مقدرة دوافعه . . وهذا يحدث دائما . . إنها تعرف كثيرا من المسيحيين أعلنوا إسلامهم للتزوج من المسلمات . . وكانت العائلات تثور ثم تعود وتضم ابنها إلى حياتها رغم أنه خرج عن دينها . . بل تعرف مسيحيات تزوجن من مسلمين وهن محتفظات بديانتهن دون أن يضطرون إلى اعتناق الإسلام ورغم ذلك تثور العائلة وتحاول وقف هذا الزواج . . إلى أن ينتصر الحب الذى جمع بين الابنة والرجل الذى اختارته فتستسلم العائلة . . تستسلم للحب . . حتى تظل محتفظة بابنتها . . وقد كانت تعتقد أن اليهود يعتبرون اكثر تطرفا فى التمسك بديانتهم والتحزب لها . . ولكنها تعرف أن كثيرا من اليهوديات قد تزوجن من مسلمين حتى فى مصر . . بل أنها قرأت عن انتشار حالة زواج بنات اسرائيل من عرب فلسطين حتى أن الحكومة الاسرائيلية قامت بحملة ضخمة لوقف هذه الزيجات . . حتى تطمئن إلى أن أولاد بنات اسرائيل سينشأون يهودا . . لا مسلمين ولا مسيحيين كآبائهم . . ولعل هذا كان الدافع لحاخام اسرائيل لاصدار قراره بأن تنسب ديانة الابن لأمه لا لأبيه . . هذا بعكس البنات العرب فى فلسطين . . فهن يرفضن الزواج بأى اسرائيلى يهودى مهما أحاط بهذا الزواج من دوافع . . ربما لأن المسلمات أكثر تمسكا وأشد ارتباطا بدينهن من اليهوديات . . ودين المسلمات يحرم عليهن الزواج بغير مسلم . . ولأن الاسلام فى فلسطين لم يعد محصورا فى الايمان بالله بل أصبح يشمل الارتباط بالوطن . . وربما ايضا لأن الرجل فى اسرائيل لم يعد يستطيع أن يقدم على إعلان إسلامه . . لأن خروجه عن دينه أصبح يعنى خروجه عن وطنه . . وايضا لم ينتشر الزواج المدنى الذى لا يحسب حساب الأديان فى فلسطين كما انتشر فى لبنان مثلا بين المسلمين والمسيحين . . لأن الإسلام والمسيحية يمكن أن يتعايشا فى لبنان ولكن الإسلام واليهودية لا يمكن أن يتعايشا فى فلسطين أى فى اسرائيل . .

ولهذا كله . . ولكثرة ما قرأت ناهد عن حالة اليهود فى العالم كله منذ عرفت شريف . . لم تطلب منه أن يقدمها إلى عائلته أو يقدم عائلته إليها . .

إلى أن كان يوم عقد القران . . والتقت ناهد بهم والتقوا بها وكل منهم ينظر إلى الآخر مبحلقا كأنه يحلق فى مخلوق عجيب يحاول أن يكتشف سره . وناهد تحكم عليهم . . انها عائلة محترمة . . تبدو كأنها لا ينقصها شىء رغم سنوات العزلة التى يعيشها اليهود فى مصر . . وشخصياتهم واحاديثهم وحتى اختيار النساء لثيابهن التى يبدون بها كلها منطلقة من صميم الشخصية المصرية والواقع المصرى والذوق المصرى . . وتجمع بين التفاهة وتبرق بالذكاء ككل ما فى مصر . . حتى انك لاتستطيع أن تعرف انهم يهود إلا إذا سألتهم أو تقصيت عنهم . .

ولكن ناهد تحس وهى بينهم أنها غريبة عنهم . . لا تستطيع أن تحس بأى احساس يجذبها اليهم . . أو يدمجها فيهم بعد أن أصبحت زوجة لابنهم شريف . . والأحاديث كلمات مقطوعة وسريعة كمجرد اضطرار كل منهم إلى إطلاق صوته . . ولعلها احست باقتراب إلى أم شريف . . انها اكثر طبيعية واكثر صدقا فى تعبيرها عن حنانها لناهد . . ربما لأنها عجوز . . وقد قالت لها وهى بجانبها . .

ـ لقد أحببتك قبل أن أراك لأنى احسست بمدى حب ابنى لك . .

انها صريحة . . تحبها لأن ابنها يحبها لا لذاتها . .

وقد انتهى الحفل سريعا مع انتهاء المأذون من كتابة العقد . . وقد وقع زوج اختها على العقد كشاهد دون أن يبتسم وكأنه يبصق امضاءه . . وهم فى حاجة إلى توقيع شاهد آخر . . وليس بينهم من الرجال سوى والد شريف وزوج اخته . . وكلاهما لا يجد الجرأة ليعرض امضاءه على عقد زواج إسلامى وكل منهما يهودى . . إلى أن شد شريف ورقة الزواج من امام المأذون ووضعها امام زوج اخته وهو يقول له مبتسما :

ـ شرفنا بامضائك ياناحوم . .

انه يعلم أن ليس فى الشرع ما يشترط أن يكون شاهدا الزواج من المسلمين . . وهو يتعمد أن يحقق التوازن بين المسلمين واليهود فى الشهادة على عقد زواجه . . لقد وقع زوج اخت ناهد وزوج اخته . .

وانفض الحفل . . لقد كان حفلا قصيرا باردا . . ولم تحاول ناهد حتى أن تهتم بما تقدمه لمدعويها . . مجرد اكواب عادية من المرطبات العادية وصينية تجمع قطعا من الحلوى والشيكولاتة والجاتوه . . كأنها تشترك مع زوجها فى تعود عدم الانفاق على المظاهر إلا فى حدود الحاجة إليها . . وما قدمته كان يكفى . . انه حفل كأنه اجتماع لكتابة عقد شركة يجمع بين بلدين مختلفين . .

وبعد انصراف المدعوين . . اخذ شريف زوجته وانصرف بها . . ولم تكن هناك أى مشكلة تواجههما . . فقد كان يعيش فى شقة ينفرد بها عن افراد عائلته . . ولم تطلب ناهد تغيير أى شىء من أثاث هذه الشقة الا حجرة النوم . . إنها تريد أن تنام مع زوجها على فراش لم يطأه جسد امرأة اخرى قبلها . . حتى لو كان ما تتصوره عن ايامه السابقة مجرد أوهام . . وقد اختارت قطع أثاث الحجرة فى منتهى البساطة . . لم تتعمد اختيار القطع الفخمة رغم أن زوجها يستطيع أن يدفع ثمن كل ما هو فخم . . انها بطبيعتها تحب البساطة . .

ولكنهما مع الأيام بدآ يعانيان وضعهما فى المجتمع الذى يحيط بهما . . ان عائلتها وأقاربها لم يقبلوا على زيارتها مهنئين كما هى العادة . . والذين زاروها منهم جاءوا كأن كل دوافعهم هى الفرجة عليها وعلى زوجها . . المسلمة التى تزوجت يهوديا . . حتى عندما دعوا عبد الله نور الدين صاحب دكان الجواهرجى الذى يشاركه فيه شريف . . جاء وحده بلا زوجته واعتذر عنها بمرضها . . ورغم المجهود المفتعل الذى كان يبذله ليحيطهما بفرحته بهما وتهنئته لهما إلا أن عينيه كانتا تفضحانه وهو ينقلهما بينها وبينه كأنه يتفرج عليهما ويحاول أن يكتشف ما جذب أحدهما إلى

الآخر . . أما أفراد عائلة شريف وأقاربه فقد كانوا أكثر جرأة فى الاقبال عليهما واكثر حرصا على توثيق الصلات بهما . . ولكن ناهد لا تستطيع أن تندمج فيهم . . ولاتزال تحس وهى تستقبلهم بثقل المسئوليات العائلية . . انهم كلهم يهود . . ورغم ان احساسها بهم ليس مركزا على أنهم يهود إلا أنها تحس بفاصل يفصلها عنهم . . كان لهم دنيا أخرى لا تراها ويعيشون فى أسرار لا تعرفها . . وربما كان مما ضايق ناهد أكثر أن بعض النساء التى كانت تعرفهن وتتعمد تجاهلهن والابتعاد عنهن لاحساسها بأنهن تافهات منحلات ، كن يقبلن عليها ويحاولن فرض أنفسهن عليها واكتساب صداقتها بتوالى زيارتها والسؤال عنها . . كأنهن اعتبرن أنها فى دنياهن . . دنيا المغامرات العاطفية والتحرر من التقاليد والمظاهر المحترمة . . لمجرد انها تزوجت من يهودى حتى لو كان قد اسلم . . لمجرد أنه أصبح معروفا أن لها قصة حب . . ولكنها لم تضعف أمامهن . . ولاتزال تتعمد تجاهلهن وابعادهن . .

إلى ان استطاعت ناهد أن تتغلب على هذا النقص الاجتماعى الذى تعانيه هى وشريف . . فقد كانت قد انتقلت إلى العمل فى مكتبة أجنبية تابعة للسفارة الامريكية . . كعادتها فى التنقل من مجال إلى مجال بحكم هوايتها للتجربة . . وقد استطاعت كالعادة أن تنجح وتثبت شخصيتها الدراسية فى هذا العمل الجديد . . واكتسبت من الأجانب . . ولا يميز أى واحد منهم عن الآخر انه مسلم أو مسيحى أو يهودى او من البوذيين . . كل ما يعرف عن كل منهم أنه أمريكى أو فرنسى او بريطانى او هندى او من بلاد الواق الواق . . واستراحت لهذا المجتمع . . وبدأت تدعو أفراده إلى بيتها وتلبى دعواتهم . . وتنطلق معهم هى وزوجها شريف فى نزهات ورحلات وسهرات . . وهؤلاء الأجانب لا يعرفون أنها مسلمة وأن زوجها كان يهوديا . . وحتى لو عرفوا لا يهتمون ويعتمدون على ما يظهر منهما وعليهما فى تحديد العلاقة معهما . . انهم يكتفون بمعرفة أنهما زوج وزوجة . . وفى الوقت نفسه كان شريف ايضا له اتصالات ببعض الأجانب من رجال الاعمال . . وقد يكون بينهم يهود . . وبدأ هو الآخر يدعوهم ويلبى دعواتهم

بمصاحبة ناهد . . وعاشا سعيدين هانئين بمصاحبة هذا المجتمع الاجنبى . .

أما فيما بينهم فلم يكن لقصتهما أى أثر على حياتهما . . ولم يحسا بأى فارق بينهما لأنها مسلمة ولأنه كان يهوديا حتى وقت قريب . . وشريف لا يمارس فروض الاسلام . . وعلى الأخص لا يصلى الفروض الخمسة . . ولا يستسلم للاتكال على الله وترديد آيات القران والدعوات كعادة كل المسلمين . . وكان يمكن أن تلاحظ تجاهله التعبير عن إسلامه وتدفعه إلى اداء فروض الاسلام . . حتى تقاوم الاحساس بأنه لم يلجأ إلى الاسلام ايمانا به انما كمجرد إجراء لإنهاء عقد زواجه بها . . اشتراها باسلامه . . ولكن كل هذا لم يخطر على بالها . . وترى فى شريف مسلما كباقى المسلمين . . فهى نفسها لا تصلى ولا فرضا واحدا من الفروض الخمسة . . ولاتتبع إلا صيام شهر رمضان . . وربما كانت تتبع الصيام للايمان بجدواه الصحية وبحكم تعودها لا لمجرد الخضوع لما فرضه الله . . وشريف أيضا يشاركها صيام رمضان . . ولم يخطر على بالها أبدا أن تتهمه بأنه ليس صائما إلا وهو بجانبها داخل البيت فاذا ابتعد عنها وخرج وحده إلى عمله فربما كان يسلى صيامه ولو بالتدخين . . يكفى أنها تراه صائما . . ولم يحدث أبدا أن جمعهما حديث حول الأديان . . سواء عن الاسلام أو عن اليهودية أو عن أى دين آخر . . لا تعمدا . . ولكن لأنه لا يخطر على بال احدهما ولا يحيره أى دين . . ان الأديان أوحى بها الله لإسعاد خلقه . . وهما من السعداء . . إلى أن كان يوم . .

ودخل عليها شريف والفرحة تزغرد فوق كل ملامحه وقال :

ـ لقد جاء خمسة من أقاربى وثلاثة من أصدقائى من اسرائيل . . وقد ذهبوا بمجرد وصولهم لزيارة بابا وأخواتى . . وذهبت إليهم هناك . . لقد مرت أعوام طويلة لم أرهم . . ورغم انهم شاخوا إلا أنى أحسست كأن كلا منهم لا يزال شابا وصبيا . . وعشنا فى الذكريات الحلوة . . وقد دعوتهم لتناول العشاء معنا غدا . .

وقالت ناهد كأنها فوجئت :

ـ لماذا جاءوا . .

وقال شريف كأنه يلومها :

ـ الا تعلمين أن الحدود فتحت بين مصر واسرائيل ولم يعد هناك ما يفرق بين الأقارب والأصدقاء . . كلنا الآن نعيش وكأننا فى بلد واحد . .

وقالت وهى ساهمة :

ـ وهل يعلمون حكايتنا . .

وقال شريف فى نفور كأن ناهد تجرح فرحته :

ـ أى حكاية ؟

قالت كأنها تذكرت حكاية كانت قد نسيتها :

ـ حكاية انك لم تعد يهوديا وأصبحت مسلما . .

وصاح فى عنف :

ـ ما دخلهم فى هذه الحكاية وماذا يهمهم منا . . سواء كنت يهوديا أو مسلما فنحن اقارب وأصدقاء . . وقالت كأنها مستسلمة :

ـ لك حق . .

وقال وقد عادت إليه كل فرحته :

ـ انى أريد أن اقدم لهم كل ما افتقدوه فى مصر . . خصوصا الملوخية . .

ولأول مرة وعلى غير عادته بدأ شريف يقوم بنفسه باعداد وليمة . . ويتعمد الاشراف والتساؤل عن كل شىء . . وكان أغرب ما قام به أن حرص على تقديم زجاجات مشروب البيرة مصنوعة فى مصر وجمع معها علب بيرة مصنوعة فى اسرائيل . .

وكانت ناهد حائرة وهى تستقبل المدعوين . . انها تفتعل الفرحة وتفتعل الترحيب وتقاوم احساسا غريبا بأنها تخاف على بيتها من أن يستولى عليه هؤلاء المدعوون . .

وقد سمعت شريف وهو يقدم أكواب البيرة يقول لهم :

ـ كل منكم يشرب البيرة المصرية . . وأنا وحدى ومن يقيم معى فى مصر يشرب البيرة الاسرائيلية . . حتى يشعر كل منا بأنه يعيش فى بلد الآخر . . لقد عدنا واجتمعنا كلنا فى وطن واحد . .

وقد كانت الأحاديث تدور بينهم أحيانا بالعربية وأحيانا بالانجليزية وأحيانا بالعبرية . . وناهد تعلم أن شريف لا يتكلم العبرية ولكنه يفهمها . . وكانت كلها أحاديث بينهم وبين بعض يشترك فيها شريف وعائلته . . أما هى فلا يتعمد أحد منهم بذل أى مجهود فى التحدث إليها . . حتى الزوجات المدعوات كن يتحدثن بعضهن مع بعض ولا يوجهن لها الحديث إلا إذا تذكرن أنه يجب أن يشركنها ولو بكلمة . . وقد سألت ناهد إحدى اللاتى تعطفن عليها بالكلام معها :

ـ واين أولادك . . لماذا لم يأتون معك إلى مصر . . وقالت الأم ضاحكة :

ـ انهم لا يشعرون بالوحشة إلى مصر كما عشنا نحن نشعر بها . . فقد ولدوا فى اسرائيل . . وقد حدثتهم كثيرا عن مصر ولكنهم لم يعيشوا فيها . . وقد وعدوا بالحضور إلى مصر فى العام القادم ليتفرجوا على بلد اهاليهم . .

وسكتت ناهد كأنها تبتلع هذا الكلام . . وقد مضت الدعوة وهى تحس بوحدة عجيبة كأن هؤلاء الناس استولوا فعلا على بيتها ولا يحتاجون إليها إلا لتلبية الطلبات وتقديم الطعام . . كأنها مجرد خادمة . . إنها ليست ست البيت . . لقد أصبحت فى هذه الساعات خادمة البيت . .

وبعد أن انصرفوا انطلق شريف بفرحته يروى لها ما سمعه من هذا او ذاك . . وهى تستمع إليه دون تعليق ولا اهتمام . . وربما أحس بعدم ترحيبها بهذه الدعوة فلم يكررها . . ولكن لاشك أنه كان على اتصال دائم بمعارفه الذين جاءوا إلى مصر . . . وكان أحيانا يعود ويروى لها أخبار لقائه بهم ولكنه غالبا لا يروى شيئا رغم احساسها بأنه كان معهم . . وبعد ثلاثة اسابيع فاجأها مرة ثانية قائلا فى فرحة :

ـ سنسافر إلى اسرائيل بعد غد . .

وارتعشت رموشها فوق عينيها كأنها تطرد سحابة تعميها ثم قالت وهى تحاول أن تكون هادئة :

ـ لن أسافر معك . .

وصاح غاضبا فى عنف :

ـ لماذا . . لماذا لا تريدين زيارة اسرائيل . . لقد انتهى ما كان وتحقق الانفتاح . . وآلاف من المصريين مسلمين واقباط يزورون اسرائيل . . ومرسى بيه عبد السميع بجلالة قدره سيزور اسرائيل . . وقد سبق أ اتصل بى وطلب منى أن أعرفه بأصدقائى الذين جاءوا من اسرائيل وأق لهم دعوة فخمة . .

وقالت مقاطعة وهى تبذل جهدا للاحتفاظ بهدوئها مع ابتسا ساخرة :

ـ ان آلافا من اليهود يزورون مصر . . ولكن لا يزورها من المصريين إلا من يعتقد انه يستطيع أن يحقق مصلحة هناك . . ومرسى عبد السميع هو مقاول بناء ولعله يعتقد أن اسرائيل ستقيم مبانى كثيرة فى مصر ويحاول أن يكتسب ودها فى علاقته بها . . هكذا اثبتت التقارير والدراسات . .

وقال فى حدة :

ـ إذا كانت زيارة اسرائيل لاتكون إلا لتحقيق مصلحة . . فيجب أن تعلمى أن تجار الذهب والمجوهرات . . والصياغ . . واساتذة كحت الماس الخام وتحويله إلى فصوص . . و . . و . . كلهم سواء كانوا فى مصر أو من أى بلد فى العالم قد أصبحوا يقيمون فى اسرائيل . . وأنا صائغ وجواهرجى وسأحقق مكاسب ضخمة بالاتصال بهم . .

وقالت فى برود :

ـ اذهب اليهم وحدك . . فهو عملك وليس عملى . . ولا شك أنك تعلم انى لم أكن سعيدة بزيارتهم لنا ولن اكون سعيدة بأن أذهب اليهم . .

وسافر شريف إلى اسرائيل وحده . .

وناهد رغم أن دراستها شملت العلوم السياسية . . ورغم أن من طبيعتها الرغبة فى الاطلاع واستيعاب كل الشئون التى تخطر على فكرها بما فيها الشئون السياسية . . إلا أنها لم تشترك أبدا فى أى تحرك سياسى ولم يعرف عنها أبدا أنها صاحبة موقف ولا حتى رأى سياسى . . انها لا تتعمد الاشتراك ابدا فى أى أحداث سياسية كأنها تكتفى بالوصول إلى المنطق السياسى . . تحدد به اقتناعا سياسيا تحتفظ به داخل منطقها الخاص . . وهذا المنطق كان يوحى إلى عقلها منذ زمان طويل بوقف الحرب بين مصر واسرائيل . . ولكن نفس المنطق لم يكن يصل بها إلى الثقة فى اسرائيل . . أو الاقتناع بكيانها كما هو قائم وكما وصلت به إليه . . كأنه منطق ست

البيت التى لم تعد تطيق ثوبا من ثيابها ولكنها لا تمزقه وترميه وتتخلص منه ولكنها تغيره وتعدل فيه إلى أن تقتنع به وترتاح إليه . .

فلم تكن المظاهر السياسية والدوافع الوطنية وحدها هى التى دفعت ناهد إلى رفض زيارة اسرائيل . . ولكنه عدم اقتناعها بوضع اسرائيل وعدم ارتياحها لها . .

وقد عاد شريف من اسرائيل بعد اسبوعين . . وأخذ يحكى لناهد عما شاهده وسمعه . . وقالت له بعد أن استمعت إليه طويلا :

ـ الم تحاول أن تعرف منهم سر اعتداءاتهم على العرب وتحاول معهم البحث عن طريق لوقف هذه الاعتداءات . .

وصاح شريف فى حماس :

ـ انها ليست اعتداءات . . انه دفاع عن النفس . . وكل يهودى يعيش فى اسرائيل وهو فى حالة خوف . . ولا تتصورى عدد من ضاع منهم سواء فى حرب أو بلا حرب . .

وقالت كأنها تلومه :

ـ الذين ضاعوا من العرب أضعاف الأضعاف . . حتى أن اسرائيل اليوم تبادل ثلاثة من اليهود الذين يأسرهم العرب بثلاثة آلاف عربى يأسرونهم . . وحتى أصبح العرب هم الذين يطالبون بالسلام واليهود هم الذين يرفضون السلام . .

وقال شريف كأنه ثائر :

ـ أى سلام هذا . . ان هذا الوطن لا يمكن أن يكون إلا وطنا لليهود أو وطنا للعرب . . لعلك تتصورين لهذا الوطن نظما ديموقراطية تجمع بين الجانبين . . فاعلمى ان العرب يتزايدون فى الانجاب كالدود . . كل امرأة

عربية تنجب سبعا أو تسعا أو عشرة من الأولاد . . وسيأتى اليوم الذى يسيطر فيه العرب على اليهود ويحكمون اسرائيل باسم الأغلبية الديموقراطية . . فحتى الديموقراطية لاتصون مستقبل اليهود إذا عاشوا مع العرب . .

وقالت ناهد وهى تنظر إليه بازدراء كأنها تتباهى بثقافتها :

ـ ان النساء العرب ينجبن أسلحة . . كل ابن لها هو سلاح لضمان المستقبل مهما كلفها إنجابه . . وانجاب الأولاد غال يكلف الكثير كالثمن الذى يدفع لاستيراد الأسلحة . . ويوم يتحقق السلام العادل فربما تعمدت النساء الراحة من انجاب كل هؤلاء الأولاد . .

وصاح شريف وكأنه يهرب من الكلام :

ـ ان هذه المواضيع لم تكن مجالا للكلام مع من قابلتهم فى اسرائيل . . ولم تكن هناك مناسبة له . .

وقالت ناهد ساخرة :

ـ على كل حال فاننا لم نسمع عن أى يهودى من أصل مصرى له شأن أو أى قيمة فى المراكز القيادية باسرائيل بحيث يمكن أن تكون هناك جدوى من مناقشته فى مثل هذا الحديث . . ان كل يهود مصر بل كل اليهود العرب كانوا يعتبرون من أغنى يهود الدنيا . . فقد كانوا يعيشون فى الوطن العربى ولهم قيمة تصل إلى قمة السيطرة الاقتصادية . . ثم ذهبوا إلى اسرائيل ليعيشوا بلا قيمة . . وكأنهم مجرد أجراء لتأدية الأعمال التى يحتاج إليها يهود أوربا . . كأنهم الزنوج التى كانت تهربهم أمريكا إلى أرضها لتسخيرهم كأيد عاملة . . كأنهم زنوج الفلاشا الذين هربتهم اسرائيل اخيرا من الحبشة ليكونوا عبيدا ليهود أوربا وامريكا . .

وصرخ شريف :

ـ ان يهود مصر لم يختطفوا . . لقد اختاروا . . ومن حق كل انسان ان يختار وطنه . . بل أن القوانين الحديثة تتيح لكل يهودى أن يجمع بين وطنين ويحمل شخصيتين وبطاقتين . .

وقالت وهى تضحك ضحكة مرة :

ـ لعلك تفكر فى أن تحمل بطاقة مصرية وبطاقة اسرائيلية . .

ولم يرد شريف عليها واختفى من أمامها كأنه يهرب منها . .

ومرت أسابيع وقد بدا يعيشان حياة كأنها حياة أخرى . . وان كان كل منهما يتعمد ألا يثير مع الآخر حديثا يدفعهما إلى مثل هذه المناقشات الحادة . .

إلى أن جاء شريف يبلغها أنه مضطر للسفر مرة أخرى إلى اسرائيل . . وسكتت . . وسافر وحده . . ووجدت نفسها بعد أن سافر زوجها تقوم وهى فى حالة عادية كأنها لا تفكر فيما يمكن أن يحيرها أو يثيرها وجمعت ثيابها ولوازمها فى حقيبتين . . وحملتهما وذهبت لتقيم فى بيت اختها . .

واستقبلتها أختها فى فرحة هادئة . . كأنها فى انتظار عودتها . . وفتحت لها غرفتها لتقيم فيها كما تعودت . . وبدأت الأخت وزوجها يسألانها عما حدث . . وردت عليهما ناهد فى كلمتين دون أن تترك لهما مجالا للمناقشات أو لمزيد من التساؤلات . . لقد عودتهما ألا يحاسبها او يتدخل فى شئونها أحد . .

وقد عاد شريف من اسرائيل بعد أسبوع . . وهرع ملهوفا إلى بيته . . لقد حاول أكثر من مرة أن يتصل بزوجته بالتليفون وهو هناك فلم يكن يجدها فى البيت . . وألقى بحقائبه . . وجرى إليها . . لابد انها فى بيت اختها . . واستقبلته فى هدوء . . وتركته يقبل وجنتيها دون أن تبادله بقبلاتها . . وقال فى صمت مرتعش :

ـ لماذا أنت هنا ؟

وقالت مبتسمة ابتسامة هادئة طبيعية :

ـ لأنى سأبقى هنا . .

وصاح :

ـ لماذا . . ماذا حدث . . ماذا تريدين ؟

وشدته من يده وهى محتفظة بابتسامتها وأجلسته على مقعد كأنها توفر له الراحة وتوصيه باحتمال ما سيسمعه . . وقالت :

ـ ان حكايتنا كانت حكاية بينى وبينك انفصلنا بها عن المجتمع كله . . المجتمع الذى يحيط بى ويحيط بك . . وكانت كل دوافعها هو اقتناعى بك واقتناعك بى ، . واحساسى بك واحساسك بى . . وقد فقدت اقتناعى واحساسى بك . . لذلك يجب أن ننفصل . . لأنه ليس لدينا شىء آخر يجمعنا سواء الاقتناع أو الاحساس . . وكما اتخذنا قرار الزواج وحدنا فاننا وحدنا نتخذ قرار الانفصال . . الطلاق . . ولا تحاول ان تسألنى لماذا . . كل ما قلته لك هو مجرد الاقتناع والاحساس . .

وأطال شريف فى حديث يحاول به أن يحتفظ باقتناعها واحساسها به كما كان . . ولكنها مصممة . . وهدوءها الكامل يغيظه ويثيره حتى قال كأنه يهددها :

ـ لقد أسلمت لاتزوجك . . فماذا اصنع بالاسلام بعد أن تتركينى . .

وقالت فى لهجة حانية :

ـ ان الدين هو التعبير عما بينك وبين الله . . لا مجرد التعبير عما بينى وبينك . . وأنت حر فى التعبير عما بينك وبين الله . .

ونظر نفسه قافزا كأنه يهرب من جحيم . . وهى تنظر وراءه مودعة فى صمت حزين . . كأنها تودع نهاية فشل . .

لقد فشلت لأول مرة فى حياتها . .

◐ ♦ ◑

أحــلام ابن الشحــاذ ..

منذ وعى منصور الحياة وهو يعيش مع أب شحاذ .. يحترف الشحاذة .. ثم عرف أن ذراع ابيه المبتورة وكتفه المعوج وساقه الملتوية الملوصة ومظهره الغلبان المشوه ليس نتيجة حادث وقع له أو نتيجة قدر ولد به .. ولكنهم أخذوه وهو طفل وشوهوه حتى يستطيع ان يحترف الشحاذة ويحقق النجاح فى حياته كشحاذ .. وأمه أيضا كانت شحاذة ولكنها ماتت وهو لا يزال فى العام الأول من عمره .. ولا يخطر على باله انها ماتت من الجوع فرغم انهم شحاذون فان الجوع لم يطرأ على حياتهم ابدا .. ربما ماتت من ثقل حياتها مع أبيه .. ان مجرد المعيشة معه تزهق الروح .. وقد كان ابوه يصحبه معه للشحاذة منذ كان فى الثانية من عمره .. والحمد لله ان اباه لم يفكر فى أن يجرى له عمليات تشويه حتى يعده ليكون شحاذا ناجحا .. ولكنه اعتمد على ادعاء العمى وان هذا الابن الصغير هو الذى يقوده .. مع وضع هذا الطفل فى مظهر الفقر حتى انه كان يلبسه جلبابا قذرا ممزقا لا يكاد يحل الشتاء حتى يرتعش من تحته .. وابوه يبارك رعشته لانها تدر عليه دخلا اكبر من الشحاذة بإثارة اشفاق الناس ..

ومنذ البداية وهو لايهوى الشحاذة ولايطيقها حتى انه بعد أن كبر قليلا كان يتعمد احيانا أن يهرب من ابيه قبل ان يستيقظ من النوم حتى لا يأخذه معه فى جولة كل يوم .. وليس ذلك لان الله وهبه احساسا بالاعتزاز بالنفس يرفعه عن أن يكون شحاذا .. انه إلى اليوم لا يزال يعتبر الشحاذة مهنة شريفة محترمة تعتمد على فن وذكاء كأى مهنة اخرى .. وتعتمد على موهبة فى التمثيل كموهبة الممثلين على المسرح أو على شاشة السينما .. والفرق ان الشحاذ يمثل على رصيف الشارع ويمثل دورا واحدا لاينتهى

ابدا .. ولكن لعله كان يهرب من الشحاذة ـ خصوصا بعد ان كبر ولم يعد طفلا يثير شفقة الناس ـ خوفا من أن يفكر ابيه يوما فى أن يقوم بتشويهه وبتر ساقه أو ذراعه ليضمن له استدرار شفقة الناس .. ثم إن الشحاذة ليست مهنة سليمة مهما ارتفع دخلها .. إنها مهنة تفرض صبر طويل على حالة من الذل والهوان يمثلها الشحاذ ساعات طويلة وهو مجمد فى داخلها وملقى على الرصيف كأنه كوم من الزبالة ..

وكان يقيم مع والده فى عشة صغيرة من الصفيح ملقاة فوق رمال صحراء خلف قرافة المجاورين .. وكان على مقربة عشة اخرى يقيم فيها الشيخ عاشور مقرىء المقابر .. وعلى الناصية الأخرى تقيم ام فردوس ومعها ابنتها الطفلة فردوس فى حفرة واسعة من الارض يغطونها بقطع من القماش والواح من الصفيح .. وكان يلمح رجالا يأتون إلى حيهم فى المساء ويلقون بأنفسهم فى إحدى الحفر المنتشرة فى الرمال وينامون حتى الصباح ثم يختفون .. وقد يعودون أو لا يعودون .. وكان يلمح احيانا بعض هؤلاء الرجال ينزلق الواحد منهم إلى حفرة ام فردوس ويغيب ساعة ثم يظهر ويختفى .. وعرف فيما بعد ان ام فردوس تبيع نفسها لمن يهبط اليها فى الحفرة نظير خمسة قروش وأحيانا مقابل قرشين .. ولا يدرى هل تبيع معها ابنتها ايضا أم لاتزال تبخل بها عن أمتاع الرجال ..

وكان يعيش هذا المجتمع كأنه مجتمع طبيعى .. مجتمع الدنيا كلها .. لايستطيع ان يفرق فيه بين الحرام والحلال .. وبين الصح والخطأ .. كل ما هناك أن الدنيا فلوس .. والذين يعيشون فى البيوت معهم من الفلوس اكثر مما مع الذين يعيشون فى العشش .. ولكن لا فارق بين الناس .. كلهم ناس .. وكان يحب أم فردوس ويحس بها كأنها أمه .. وهى ايضا كانت تحبه وتدلله بضحكاتها وتضفى عليه كل ما ينقصه من رعاية الام .. وتدعوه كثيرا ليأكل معها هى وابنتها إذا وجدت عندها يوما ما يكفى ليشاركهما الأكل.. وهى التى كانت تحيك له جلبابه القديم الذى كان دائما ممزقا حتى أصبح كله من خيوط ام فردوس .. وكانت هى أول من

وضع فى قدميه حذاء لا يدرى اين وجدته . . وكان حذاء واسعا يجره بقدميه . . وهو فرح به . . وقد وضع قدميه فى حذاء قبل أن يضعهما فى جورب . . مضت سنوات قبل أن تصل قدميه إلى جورب . . وهو قد تعود منذ البداية أن يمد يده إلى كل ما يستطيع أن يمدها اليه . . قد يمدها إلى تفاحة معروضة أمام دكان الفكهانى . . أو يمدها إلى حزمة من أعواد الملوخية معروضة أمام دكان الخضروات . . أو يمدها إلى كيس معلق لدى دكان بقال دون ان يعرف مافيه ولكن لاشك أن فيه شيئا يؤكل . . وفى مرة مد يده إلى دجاجة صاحية واستطاع أن يأخذها لنفسه . . إن اغلب ما تمتد اليه يده يحمله إلى ام فردوس ويشاركها فيه . . وقد كان يهوى مد يده اكثر مما يهوى الشحاذة مع ابيه . . ولم يكن يتجرأ على مد يده قبل أن يفكر . . انه ذكى . . يحسب حساب كل ما حوله . . ولم يحدث ابدا ان ضبطت يده الممدودة . . . هل ولد ومن طبيعته أن يكون لصا أو نشالا . . لايهم . . إن السرقة هى نوع من الشحاذة . . ولكن السرقة تعفى الشحاذ من الذل والهوان ومن الصبر الطويل وهو مكوم على الرصيف ككوم الزبالة حتى يستدر اشفاق الناس . . أن اللص هو سيد نفسه ، والناس تحت رحمته وليس هو الذى تحت رحمتهم . .

وهو أيضا يحب الشيخ عاشور ويقضى الليالى أحيانا يسمعه وهو يرتل القرآن لنفسه . . وأحيانا كان يصحبه وهو يطوف بين المقابر إلى أن يدعوه أحد إلى مقبرة فيجلس ملتصقا بها ويتلو تلاوة سريعة تختلط كلماتها وترن كأنها عجلات قطار يجرى فى منتهى سرعته . . ثم ينتفض واقفا يمد يده ليأخذ أتعابه . . إلا إذا نهره أهل المقبرة وطلبوا منه أن يستمر فى التلاوة . . فيعود ويجلس مستسلما ويطلق رنين عجلات القطار . . ولكن الشيخ عاشور معروف بأنه فى منتهى البخل . . ولم يمن على منصور أبدا بشىء ولا حتى بلقمه خبز رغم ازدحام عشته دائما بأرغفة العيش التى يجمعها من المقابر . . وعندما كان يسمح له بمصاحبته إلى المقابر كان الأهالى احيانا يشفقون على هذا الصبى الذى يصاحب المقرىء ، وقد يظنون أنه إبنه فيحسنون عليه بقروش بعد أن يكون قد دفعوا أتعاب عاشور . . ثم لايكادان

يخطوان خطوة بعيدا عن المقبرة حتى يمد الشيخ عاشور يده دون أن ينطق بكلمة ويأخذ القروش التى وصلت ليد منصور . . ويستسلم منصور دون أن ينطق بكلمة هو الآخر . . لقد كان الشيخ عاشور يعتقد انه يمن على منصور بانه يتركه يستمع اليه أو يصحبه . . وهذا يكفى . . وفى يوم قال منصور للشيخ عاشور فى استجداء :

ـ حفظنى ياسيدنا الشيخ . .

وكان يريد فعلا أن يحفظ القرآن . . كانت من طبيعته ان يتطلع إلى اكتساب كل شىء . . وهو يريد ان يكتسب حفظ القرآن . . لم يكن يخطر على باله أن يكون مقرئا هو الآخر كالشيخ عاشور . . ولكنه فقط يريد أن يكتسب شيئا جديدا يضيفه فى بناء نفسه . . ومن يدرى . . ربما احتاج يوما أن يثبت أنه حافظ للقرآن . . وقال له الشيخ عاشور كأنه ينهره :

ـ وماذا يعود علىّ أنا لو حفظتك . . هل تريدنى أن أقضى الليالى ألقنك كل كلمة وأهلك لسانى وأحرق دمى وليس لى من نصيب الا التمتع برؤية وجهك . . قل لأبيك ان يخرج بعض ما عنده ويدفع ما يعوضنى عن تحفيظك . .

ومنصور يعرف أن أباه لايمكن أن يخرج مليما واحدا ليدفعه لأحد ولا لابنه ولا حتى لنفسه . . فكل حياته وكل ما حوله شحاذة . . إن كل لقمة يأكلها أو يعطيها لابنه ليأكلها لقمة مشحوذة . . وكل ما يستر به جسده وجسد ابنه مشحوذ . . حتى لو مرض فهو يستطيع ان يشحذ الدواء . . ورغم ذلك فمنصور يعرف أن أباه قد جمع من الشحاذة قطعا من النقود لاتعد ولاتحصى . . مئات وربما آلاف . . وهو يحتفظ بما جمعه داخل المرتبة التى يمدها على الارض وينام عليها وحده . . بينما يترك ابنه ينام على قطعة من الخيش كان قد وجدها فى أكوام الزبالة أو لعله شحذها . . وكان بعد أن يعود إلى العشة فى المساء ويجد فيها منصور يجلس قليلا يسترد انفاسه ثم يصرخ فى ابنه :

- ابعد عن وجهى . . ولا أريدك أن تدخل على إلا بعد أن انام . .

ويخرج منصور من العشة طائعا . . ولكنه كان يستطيع أن يتلصص بعينه على أبيه من ثقب فى لوح الصفيح فيراه يخرجا سكينا صغيرا يشق به المرتبة التى ينام عليها . . ثم يجمع من بين ثنايا جلبابه كمية من النقود يدسها داخل المرتبة . . ثم يعود ويخرج من جلبابه ايضا خيط وابرة ويحيك الثقب الذى فتحه فى المرتبة . . ثم يعيد كل شىء إلى مكانه ويتمدد فوق المرتبة وينام . . ينام فوق الكنوز التى يجمعها . . وقد انتفخت هذه المرتبة بما فيها حتى اضطر ابوه يوما إلى أن يشحذ مرتبة ثانية يضعها فوق الأولى ويدس فيها ما يستجد من قطع النقود وينام عليها . . والغريب أن أباه كان يترك المرتبتين كل صباح ويخرج إلى سوق الشحاذة وهو مطمئن إلى أن احدا لن يصل إليهما ليسرق الكنز . . مع أن العشة الصفيح تكفى لمسة يده لتنهار كلها وتصبح الكنوز فى العراء . . لعله كان مطمئنا إلى أن أحدا لا يمكن أن يصدق أنه يحتفظ فى عشته بكنز . . أو ربما كان من تقاليد الحى أن لايعتدى أحد من أهله على الآخر أو يقتحم عشته . . وفعلا لم يضع مليما واحدا مما جمعه ابوه فى المرتبة طوال هذا العمر الطويل . .

واحتار منصور من أين يأتى للشيخ عاشور بثمن تحفيظه القرآن . . إلى أن لمح وهو يجوب الشوارع والحوارى جلبابا واسعا معلقا على حبل ينشر عليه ما يغسل من ثياب إلى أن تجف . . واستطاع ان يمد يده إلى هذا الجلباب ويجرى به إلى الشيخ عاشور ليعطيه له كدفعة من اتعابه . . وقلب الشيخ عاشور الجلباب بين يديه ولم يسأل منصور من أين اتى به . . ثم بدأ فورا فى تحفيظه القرآن . . يتلو الآية ليرددها وراءه إلى أن يحفظها . . وبدأ معه بتلاوة الفاتحة . . ثم قال له :

- ينقصك مصحف . .

وقال منصور :

- ماذا افعل بالمصحف وانا لا اقرأ . .

وصاح الشيخ عاشور فى وجهه :

- تتبارك به ولعل الله يرضى عنك ويعينك على حفظ القرآن . . ثم يجب دائما ان تعرف ماذا حفظت من المصحف حتى لو كان بمجرد النظر إلى الآية دون أن تقرأها . .

وهمس منصور بينه وبين نفسه . . بسيطة . . إنه يرى كثيراً من مصاحف القرآن موضوعة فوق المقابر خصوصا فى المدافن الكبيرة القديمة . . وخرج فى الصباح إلى قرافة المجاورين ، واخذ يطوف بين المقابر إلى أن استطاع ان يتسلل إلى مدفن واسع كأنه قصر ، ويعرف إنه مدفن لاحد الباشوات القدامى ، ولايزال أبناء الباشا واحفاده يدفنون فيه . . ووجد على قبر الباشا مصحفا كبيرا تلمع على غلافه خطوط من ذهب . . ويبدو انه مصحف جديد لعل الاحفاد جاءوا به حديثا احياء لذكرى الباشا . . وقرر أن يمد يده إلى هذا المصحف ليتفاخر به امام الشيخ عاشور ، ويتباهى بأن الله راض عنه حتى وهبه القدرة على الحصول على كتابه المقدس فى افخم صورة . . ولكن كيف يحمل هذا المصحف ويخرج به امام الناس . . وهداه ذكاؤه بسرعة فنزع مخده موضوعة على أريكة من ارائك المدفن . . نزعها من الكيس الذى يغطيها . . ووضع مكانها المصحف الكبير ثم حمل الكيس فوق ظهره وسار به بين الناس . . وطبعا لم يخطر على بال أحد انه يحمل تحفة مسروقة . .وهو مطمئن . . انه ليس لصا . . فكتاب الله لايمكن أن يسرق . . وهو ملك لكل يد تصل اليه لإنه ليس ملكا لأحد ، ولكنه ملك الله . .

وبهر الشيخ عاشور فعلا وعيناه مبحلقتان فى جمال وفخامة المصحف المطبوع . . ثم وضعه بجانبه وشد مصحفه القديم المتوسط الحجم قائلا لمنصور :

- ما جئت به سيكون لى . . وهذا يكفيك . .

وبذل الشيخ عاشور يومها مجهودا أكبر فى تحفيظ منصور . .

إلى أن قال له منصور يوما :

ـ أريد أن اقرأ يا سيدنا الشيخ . . علمنى القراءة . .

وقال له الشيخ عاشور دون أن يعلق بشىء :

ـ اذهب إلى الشيخ عبد المولى فى حوش بركات بالمجاورين .

وكان حوش بركات من المرافق القديمة الفخمة . . كأنه قصر من قصور الامراء . . وكان أفراد عائلة بركات من الكرم وسعة العقل حتى إنهم خصصوا جانبا من الحوش الواسع ليكون شبه مدرسة مجانية لتعليم أطفال الفقراء القراءة والكتابة . . وعهدوا بهذه المدرسة إلى الشيخ عبد المولى ـ بعد أن توفى الشيخ الذى تولاها قبله ـ ويدفعون له راتبا شهريا . . وعندما ذهب منصور إلى الشيخ عبد المولى نظر إليه كأنه يستعرض شكله ثم سأله فى قرف وازدراء :

ـ ابن من ياواد ؟

وقال منصور وهو يرتعش أمام الشيخ عبد المولى :

ـ ابن برهوم الاكتع . .

وقال عبد المولى بعد أن بصق بصقتين فى قرف :

ـ برهوم الشحاذ . . امش من أمامى ، وإن رأيتك مرة ثانية فسأقطع رقبتك . . ولكن منصور لم يمش من أمام الشيخ واخذ يتحايل عليه ويبكى حتى يجود عليه بأن يعلمه القراءة والكتابة . . ولكنه فهم من كلام الشيخ أن المدرسة وإن كانت مدرسة خيرية مجانية إلا انه يجب أن يدفع له . . أن الشيخ يقول أن الطفل كى يتعلم يجب أن يحس بأن اباه يدفع ثمن تعليمه ، فالطفل لا يشعر أبدا بحاجته إلى التعليم . . كل ما يشعر به هو حاجته إلى الهرب من المدرسة ومن الذين يعلمونه . . والشيخ عبد المولى لا يقبل من

الذى يعلمه أقل من جنيه كامل فى أول كل شهر . . علاوة على ما تجود به العائلة وترسله له مع الابن . .

ولكن منصور بعكس ما يقول الشيخ يحس انه يريد أن يتعلم . . أنه يغار من الأطفال الذين يراهم فى الشوارع يحملون الكتب وحقائب المدرسة . . ويتردد كثيرا على أبواب المدارس ويقف يتفرج على الطلبة الصغار وهو يتمنى أن يكون معهم . . ما ذنبه إذا كان ابن شحاذ حتى يحرم من أن يكون كبقية الأطفال . . إنه يريد أن يتعلم كما يتعلمون . . ولكن. . . من أين يأتى بالجنيه الذى يدفعه كل شهر للشيخ عبد المولى . . إنه رغم اعتماده على يده الخفيفة التى يمدها لكل ما يريد إلا أنه لم يتعود حتى اليوم أن يمدها إلى النقود . . لم يسرق أو ينشل أبدا أى مبلغ من المال . . ووجد نفسه منقادا إلى فكرة خطرت له . . فذهب إلى حيهم ودخل إلى أم فردوس وطلب منها خيطا وابرة والمقص الذى تحتفظ به . . ثم دخل إلى عشته وأبوه غائب عنها . . وفتح ثقبا فى حافة المرتبة ومد يده فيها واخرج مجموعة من أوراق النقد الصغير أخذ يعد فيها حتى استكمل الجنيه وبدأ يتعلم القراءة والكتابة . . والشيخ يقول له :

ـ قل لابيك يفتح يده ولا يحرمنا . . يشحذ لنا كما يشحذ لنفسه . .

ومن يومها اصبح الطريق السهل أمامه هو الطريق إلى مد يده داخل المرتبة . . حتى أنه استطاع أن يحصل على مقص خاص به كما حصل على الأبرة والخيط حتى لايحتاج إلى أم فردوس وتكشف سره . . وقد بدأت يده تمتد إلى أكثر مما يحتاج إليه الشيخ عبد المولى ليعلمه . . لقد بدأ يعطى ايضا الشيخ عاشور الذى يحفظه القرآن . . وكان يعطى أحيانا أم فردوس لتشترى له قطعة لحم فقد اشتاق أن يمضغ اللحم . . ولا أحد يسأله من اين يأتى بما فى يده . . لم يتعود أهل الحى أن يسألوا من أين . . وهو فى نفس الوقت لا يزال يمارس موهبته فى أن يمد يده إلى كل ما يغريه بمد يده خارج المرتبة . . وقد استطاع أن يمد يده إلى عمامه كاملة اخذها إلى الشيخ عبد المولى هدية له حتى يهتم بتعليمه . . كما استطاع ان يمد يده إلى حذاء

جديد يضع فيه قدميه ولكنه تعذر عليه أن يجد جوربا يمد يده اليه فاشتراه من خزينة المرتبة . . كما لايزال يعتمد على مد يده ليأكل . . فيحصل على أصناف مما يؤكل يحملها إلى أم فردوس لتعدها له . . وهو حريص على الاستمرار فى حفظ القرآن حتى حفظ منه معظم سوره وآياته . . كما أنه كان حريصا على تعلم القراءة والكتابة حتى اجادها . .

وهو الآن يريد أن يحصل على شهادة . . الشهادة الابتدائية . . لماذا لا يحصل عليها كبقية أولاد الناس . . وما ذنبه انه ابن شحاذ ويقيم فى عشة ملقاة فى الرمال بعيدا عن حى المجاورين . .

وقال له الشيخ عبد المولى انه يستطيع أن يحصل على الشهادة دون أن يلتحق بمدرسة . . يتقدم إلى الإمتحان من منزله كما يفعل كثير من الأولاد . . والشهادة تحتاج إلى كتب وأوراق واقلام . . وقد استطاع أن يمد يده إلى كثير من الحقائب المدرسية التى يحملها طلبة المدارس الإبتدائية ويجد فيها ما يحتاج إليه . . ولكنه كان أحيانا يضطر أن يمد يده داخل المرتبة ليحصل على ما يشترى به ما لا تصل إليه يديه . . والشيخ عبد المولى لا يزال يواليه وان كان قد رفع اجره إلى ثلاثة جنيهات فى الشهر . . . . وماقى داخل المرتبة يكفى دائما . .

إلى أن حدث ما حدث . .

فقد كان قد فتح الثقب فى المرتبة ومد يده فيه عندما دخل أبوه إلى العشة فجأة وفى غير موعده ، وما كاد يرى إبنه ويده ممدودة إلى مهبط الكنز حتى صرخ صرخة مدوية ورفع العكاز الذى يستند عليه وانهال به على رأس إبنه . . ولكنه ما كاد يرفع العكاز حتى سقط على الأرض وهو لايزال يصرخ بكلمات كالعواء ويشوح بالعكاز ليضرب به . . ومنصور لا يريد أن يهرب من أمام أبيه إلى خارج العشة . . ويحلق فيه كأنه خائف عليه . . ويقول كلاما ما يستجديه به أن يهدأ ويتفاهم . . وهو يردد :

ـ اقتلنى يابوى . . اقتلنى إذا أردت . .

وفى هذه اللحظة كان يمر أمام العشة عدد من الافراد المشردين الذين تعودوا أن يفدوا على الصحراء ، وينامو فى الحفر ، ويختفوا فى الصباح . . افراد ليسوا من أهل الحى . . وسمعوا الصراخ فانحنوا إلى داخل العشة مستطلعين فإذا بهم يرون القروش مدلاة من ثقب المرتبة المفتوح ، فسقطوا فوق المرتبة يمزقونها ويستولون على ما يجدونه فيها . . فتحوا خزانة برهوم الاكتع الشحاذ . . وهو راقد على الارض يصرخ ويشوح بعكازه . . ولم يتوقف منصور بل انضم إلى المهاجمين وأخذ يجمع هو الأخر ما تصل إليه يداه ويعبىء به حجر جلبابه . . ثم جرى خارجا من العشة إلى عشة أم فردوس والقى بما جمعه على ارضها . . ثم عاد يجرى عائد إلى ابيه . . ووجد المشردين وقد تركوا العشة . . وأباه ملقى صامتا على الأرض . . والمرتبتين اللتين كان أبوه ينام عليهما ممزقتين حتى آخرهما وليس فيهما شىء من أموال الكنز . . لم يجد شيئا سوى بضعة قروش منثورة فى انحاء العشة . . وانحنى على أبيه يتحسسه . . لقد مات . .

مات أبوه من الصدمة دون أن يعتدى عليه أحد . .

وعرف كل أهل الحى الحكاية واستمروا يتندرون بها . بعضهم حزين ، وبعضهم ساخر ، ولم يفكر منصور ولا أحد من أهل الحى لإبلاغ البوليس ليبحث لهم عن الذين اخذوا اموال كنز الشحاذ ويستردها منهم . . بل لم يحاول أحد الإبلاغ عن موت برهوم الأكتع . . لا أحد يبلغ عنه من ابناء هذا الحى سواء من الاحياء أو الأموات . . ووقانا الله شر الحكومة . .

ودفن برهوم الاكتع بعد ان لف فى قطعة قماش مهلهل وبعد أن قرأ عليه الشيخ عاشور بعض الآيات واختاروا لدفنه حفرة ليست مقبرة ولا حتى مقبرة صدقة . . ولم يبك عليه احد ، ولا ابنه منصور الذى ذهب إلى أم فردوس وأخذ يعد ما خرج به من كنز ابيه . . وهى جالسة امامه تبتسم كأنها فرحة به وبما عاد اليه . . ولكنه مبلغ صغير لا يتجاوز عشرة جنيهات كلها من القروش والملاليم . . جمعها وأعطاها لأم فردوس لتحتفظ له بها . .

وعاد إلى العشة وقد اصبحت له وحده وهو يفكر فيما سيكون عليه مصيره . . مهما كان حال ابيه فقد كان يعتمد على وجوده معه . . والآن هو وحده . . فماذا يفعل . . إنه لا يريد أن يكون شحاذا كأبيه رغم أنه على علم بكل أسرار المهنة . . إنه يفضل أن يعتمد على مد يده إلى ما يستطيع أن يمدها اليه . . اى أن يحترف ويتفرغ للسرقة والنشل . . وهو إلى الان لم يكن لصا محترفا ولا متفرغا . . كان يمد يده اشباعا لهوايته وبقدر ما يحتاج إليه من مطالب بسيطة رخيصة . . ولكنه يجب أن يغير حياته . . وفعلا . . بدأ يتوسع فى مد يده . . واستطاع بسرعة ولفرط ذكائه أن يجمع الكثير . . بل انه تخصص فى سرقة ما فى داخل السيارات ، واصبح قادرا على فتح باب اى سيارة . . وعرف كثيرون من الذين يشتركون فى المهنة . . وتعلم منهم الكثير . . وكان بعضهم يكونون من بين انفسهم شللا أو عصابات تقوم بعمليات جماعية . . وأحيانا يصلون إلى احتكار حى من الأحياء محرما على أى عصابة اخرى ان تعمل فيه . . ولكن منصور كان يفضل دائما أن يعمل وحده . . وكان من الذكاء بحيث يكسبهم جميعا حتى يتقى نقمتهم عليه وتعريض نفسه لمعارك معهم . .

وهو لايزال يقيم فى نفس العشة . . ويعيش كأن ام فردوس هى أمه وكأن الشيخ عاشور هو أبوه . . ويفيض عليهما مما تصل إليه يداه . . وفى نفس الوقت لا يزال مصمما على الحصول على الشهادة الابتدائية . . وعندما وجد نفسه قد اصبح قادرا على دخول الامتحان فوجىء بأن ليس معه اى ورقة رسمية تحدد وجوده ، ويستطيع ان يقدم نفسه بها إلى الامتحان . . إلى الحكومة . . ليس له حتى شهادة الميلاد . . وقد قال له الشيخ عاشور أن لا أحد يبلغ الحكومة عن ابنه الذى يلده حتى لا تستولى الحكومة على هذا الابن بعد ان يكبر وتجنده ليكون جنديا فى خدمتها . . ولكنه لن يجند لأنه ابن وحيد . . واخذ يسعى حتى تقدم إلى مكاتب الحكومة كأنه ساقط قيد وأن الشيخ عاشور ولى أمره ويريد تسجيله . .

وتم كل شىء ودخل الامتحان . .

ونجح . . اصبح يحمل الشهادة الابتدائية . . ولكن لا يكفى . . يجب ان يحصل على الثانوية ايضا ويدخل الجامعة . . لماذا لا . . أنه كبقية الاولاد حتى لو كان ابن شحاذ . . بل أنه اصبح بعد الابتدائية مثقفا حتى وإن لم يكن من ابناء الطبقة المثقفة . . ولكنه يجب ان يغير مظهر الحياة التى يعيشها . . وكان قد غير الكثير من مظهره فعلا . . إنه يرتدى الآن البنطلون والقميص ولم يعد يظهر بالجلابية . . وقد أصبح يفضل البنطلونات الجينز . . بل أنه يخرج من العمليات التى يمد فيها يده بأرباح تكفى لأن يشترى بدلة كاملة ومعطفا . . وقد قرر اخيرا ان يترك العشة التى يقيم فيها وينتقل إلى بيت له جدران . . وقد استطاع ان يجد غرفتين فى احد احواش المدافن الواسعة القديمة يؤجرهما التربى المسئول عن هذا المدفن بعد ان تشتت اصحابه ، ولم يعد منهم من يحاسبه ولا من يتردد على المدفن لزيارة المقابر . . وقرر ان يأخذ معه ام فردوس والشيخ عاشور ليقيما معه . . انهما امه وابوه . .

وقالت له ام فردوس وهى فرحة :

ـ ولكن كيف تعيش معك ابنتى فردوس . . ماذا يقول الناس . . الا إذا عقدت عليها واصبحت زوجتك . .

وقال ضاحكا :

ـ لا تتعجلى يا أمى . . انى لم اصل بعد إلى الخامسة عشرة من عمرى . . فكيف أتزوج . .

وقالت أم فردوس جادة :

ـ الرجل يتزوج عندما يستطيع أن يكسب . . وانت تكسب . . ودوسة ابنتى فى الحادية عشرة من عمرها ولكنها مادامت قد استكملت بلوغها فيجب أن تتزوج . .

وقال منصور مستمرا فى ضحكته :

ـ على بركة الله . .

وتزوج منصور من دوسة دون أن يطرأ على باله أن يسأل نفسه إذا ما كان الرجال الذين تعودوا أن ينزلوا إلى الحفرة ليضاجعوا امها قد ضاجعوها هى الاخرى أم لا . . إن كل ما فى حياته كان طبيعيا لا يثير اى تساؤل . .

وانتقلوا ليعيشوا بين الجدران فى حوش المدفن . . وكانت حياة اوسع وارقى من حياة العشش . . ولكن ما لبثت ام فردوس أن ضاقت فهى لا تستطيع أن تعيش بين جدران . . ولا تستطيع ان تتحمل الحرمان مما تعودت أن تعيشه . . وصممت أن تعود إلى حياة الحفرة فى الصحراء . . وصرخ منصور :

ـ كيف تخرج زوجتى دوسة لتزورك فى عشتك وقد تعودت أن تعيش فى بيت . .

وقالت أم فردوس تطمئنه :

ـ لن تزورنى دوسة . . انا التى ازورها . . لا أريد أن أرها فى الحفرة . . والشيخ عاشور ايضا اصبح يضيق بحياته . . إنه اصبح يطوف بالمقابر فلا يدعوه احد ليقرأ . . الناس اصبحت تعتبره كأنه اصبح غنيا وجارا لهم . . والله لا يريد أن يقرأ على المقابر قراء اغنياء يجب ان يكونوا من الفقراء حتى يكونوا اقرب الى الله . .

وصاح منصور فى وجهه :

ـ إنك لم تعد فى حاجة إلى التعب امام المقابر . . وانا كفيل بذلك . .

وقال الشيخ عاشور :

ـ ليس المهم ان اتكسب . . المهم أن أقرأ تقربا لله . .

وتركه الشيخ عاشور ايضا وعاد إلى العشة التى كان يعيش فيها . . إن الحياة هى ما تتعود عليه . . وقد تعود الشيخ عاشور على الحياة فى عشة ملقاة بين الرمال . . ربما لو كان ابوه حيا لعجز ايضا عن نقله من العشة أو حرمانه من الشحاذة كما تعود أن يعيش حياته . .

وعاش وحده هو وزوجته دوسة فى البيت الصغير داخل المدفن . . إنه لا يحس بدوسة كشخص آخر فقد عاشت معه كل حياته منذ ولد وولدت بعده . . كأنها ولدت لتكمله . . انهما شخص واحد . . وهو يزداد فى عمليات مد اليد . . ودائما يكسب . . ودائما فى أمان . . ولايزال مصرا على الحصول على شهادة الثانوية . . ويقضى كل فراغه فى مذاكرة الكتب التى اشترى بعضها واستطاع ان يحصل على البعض الآخر بمد يده الذكية . . وهو يحلم بأن يصل يوما إلى الجامعة . . ويتخرج . . ويستطيع ان يصل إلى كل ما يريد . . ربما استطاع أن يكون وزيرا . . ولكى يكون وزيرا يجب ان يبدأ منذ اليوم فى أن يعيش السياسة . . وهو منذ قرر أن يحصل على شهادة الثانوية دون أن يلتحق بمدرسة وهو يتردد على مدرس خاص يعلمه . . إنه مدرس غال يأخذ منه جنيهان فى الدرس الواحد أتعابا له . . وقد قال له المدرس إنه عضو فى الحزب السياسى ويحدثه كثيرا فى السياسة . . لماذا لا ينضم إلى هذا الحزب حتى يكبر فيه ويصبح معروفا به فيختارونه ليكون وزيرا . .

من يدرى . .

◐ ♦ ◑

نائم وهو صاح ..

كانت الساعة قد وصلت إلى ما بعد العاشرة مساء عندما جلس الأسطى عطية على مقعد قيادة السيارة اللورى الضخمة التى تجر وراءها شاحنة كبيرة . . وأدار الموتور وهو يقرأ الفاتحة بينه وبين نفسه وتحرك باللورى فى طريقه عائدا إلى القاهرة .

كان قد ترك القاهرة فى الساعة السابعة من صباح نفس اليوم وهو يقود اللورى ويجر وراءه الشاحنة محملين بأجولة ضخمة من منتجات الشركة ليسلمها فى ميناء الاسكندرية . . والمرفهون من قادة السيارات الصغيرة الخاصة أو الاجره يقطعون الطريق الصحراوى بين القاهرة والأسكندرية فى ساعتين ونصف . . وقد يتحدون الزمن ويقطعون المسافة فى ساعتين . . واتوبيسات الركاب قد تقطع نفس المسافة فى ثلاث ساعات ونصف . . أو أربع . . أما هو فيقطع هذه المسافة وهو يقود هذا اللورى الضخم ويجر وراءه هذه الشاحنة الثقيلة فى ست ساعات وأحيانا فى سبع . . ومعروف عنه كسائق أنه وافر الهدوء وقادر على الصبر الطويل ولاتنتابه شهوة الاسراع بالسيارة التى يقودها أو تخطى سيارة تسبقه . . وكل ما يهمه هو أن يصل بسلامة الله دون أن يهمه حساب الساعات التى مرت به حتى وصل . . ومادام قد وصل ، فلا يهم إن كانت قد زادت ساعة او نقصت ساعة عن الموعد المقرر رسميا لوصوله . . وقائد السيارة يجب الا ينظر فى الساعة الزمنية الموضوعة امامه وهو يقود . . بل يجب أن يركز كل عينيه على ما امامه وما يحيط به حتى يتقى الأحداث ويوفر السلامة . . خصوصا إذا كان يقود سيارة فى ضخامة وثقل عمارة ، او كأنها ـ وحدها ـ

مصنع كامل يتحرك كاللورى والشاحنة اللتين يقودهما الاسطى عطية . . فإن خسارة الساعات الزمنية لاتقاس بجانب خسارة الروح ، أو خسارة كيان السيارة فى حادث تصادم ، أو فى حادث مصادفة عثرة قد تقلب السيارة وتقضى عليها . .

وربما تكونت هذه الشخصية الهادئة الصبورة للأسطى عطية نتيجة انه لايحس وهو يقود السيارة بأنه يؤدى عملا مفروضا عليه حتى يكسب رزقه . . ومضطر اليه مهما عرضة للإرهاق والمتاعب والمشاكل . . انما يحس وهو يقود السيارة كأنه يعيش حياته الطبيعية . . ويحس وهو جالس أمام عجلة القيادة نفس احساسه وهو جالس أمام زوجته وأولاده . . هذه هى الحياة . . وقد بدأ حياته بالسعى إلى عجلة القيادة قبل ان يسعى إلى الزواج وانجاب الأولاد . . بل إنه يعتبر أن الحياة العائلية التى أقامها ليست سوى استكمال لحياته مع « الدريكسيون » . . أى مع عجلة القيادة . . وقد بدأ حياته صبياً يعمل فى جاراجات الشركة . . ومنذ رأى عجلة القيادة من بعيد ، وهو يحس انها حياته . . يريد أن يعيش معها وبها . . وقد استطاع ان يسعى إلى أن أصبح قائد سيارة من سيارات النقل اللورى التى يعيش بينها . . وعاش كل أيامه وعجلة قيادة اللورى فى أحضانه . . ووصل ارتباطه بالسيارة التى يقودها إلى حد أنه كان يثير ضجة إذا حاولت الشركة ان تعهد إلى سائق آخر بقيادتها . . كأنها زوجته وليس من حق رجل آخر أن يتولاها . . وقد راعت الشركة فعلا أن تكون هناك سيارة مخصصة لقيادة الاسطى عطية مراعاة لرضائه لما عرف عنه من مكانة بين قادة السيارات . . وصحيح أن هذه السيارة قد تغيرت نتيجة التطور فى اختراعات معدات سيارات النقل ، ولكن يبقى إحساسه ـ دائما ـ واحدا بكل سيارة يتولى قيادتها . . احساسه بأنها حياته . . كأنها زوجته . . رغم أن زوجته لا تتغير ولا يدخلها أى تطور . .

إلى هذا الحد كان الاسطى عطيه مرتبطا بالسيارة اللورى التى يتولى قيادتها . .

وفى هذا اليوم الذى كلف فيه الأسطى عطية بقيادة اللورى من القاهرة إلى الاسكندرية . . ابلغته الشركة بأن اللورى يجب أن يعود إلى القاهرة فى نفس اليوم محملا بآلات مستوردة . وانها ترى أن تكلف سائقا آخر ينتظره فى الاسكندرية ويعود به . . وكانت الشركة تقصد أن الأسطى عطية سيكون متعبا بعد الوصول إلى الاسكندرية . . وهى تريد أن تريحه وتطمئن اكثر إلى عملية نقل بضائعها . . ولكن الأسطى عطية كشر عن انياب الثورة والغضب . . كيف تعهد الشركة بسيارته إلى سائق آخر . . ثم كيف تفترض انه لن يستطيع قيادة هذه السيارة الضخمة ذهابا وإيابا بين القاهرة والاسكندرية . . لقد سبق أن قاد السيارة فى رحلات طويلة استغرقت اكثر من عشرين ساعة دون توقف . . فكيف تنسى . . ثم انه لو تولى القيادة ذهابا وإيابا فإن المكافأة التى يحصل عليها بالإضافة الى مرتبه قد تصل إلى مائة جنيه . . وهو لا يمكن أن يضحى بمائة جنيه حتى يوفر تعب ليلة . .

واضطر موظفو الشركة أن يستجيبوا للأسطى عطية ويتركوه يعود بالسيارة إلى القاهرة . . انهم لا يتجاهلون قدراته وقوة احتماله كسائق . . ولا ينسوا أفضاله . .

ووصل الأسطى عطية بالسيارة إلى ميناء الإسكندرية فى الساعة الثالثة بعد الظهر . . اى تولى قيادتها لمدة ثمانى ساعات لم يتوقف خلالها إلا نصف ساعة قضاها فى كشك مدبولى المقام على رمال الصحراء عند منتصف الطريق . . وتناول كوبا من الشاى الأسود وشد نفسا من الجوزة دون أن يتبادل حديثا مع سائقين من اصدقائه وجدهما هناك مكتفيا بإلقاء التحية ثم التفرغ للشاى والجوزة . . انه وهو يؤدى مهمته لا يعرض نفسه لما يشغله عن التركيز عليها حتى لو كان مجرد حديث مع اصدقاء . .

وبعد أن وصل إلى الميناء ترك عجلة القيادة ونزل من السيارة ليقف مع العمال وهم يفرغونها من حمولتها . . وهو ليس مسئولا عن تفريغ اللورى . . ولكنه يصمم على أن يثبت وجوده فى كل ما يتصل بالسيارة . .

وبعد أن مرت ساعات وانتهى انزال الحمولة . . قاد السيارة إلى مكان آخر حيث بدأ تحميلها بالآلات المستوردة . . ثم ترك عجلة القيادة ووقف ايضا مع العمال والمشرفين عليهم يتدخل بنفسه فى كل حركة وفى كل تصرف . .

وبعد ساعات بدأ يحس بالانهاك . . واستند على باب السيارة وهو يقول لنفسه من خلال ابتسامة تتهالك على شفتيه :

ـ من حقك أن تحس بالتعب يا عطية . . شد حيلك . .

لقد خرج من بيته فى القاهرة فى الساعة الرابعة صباحا . . والساعة الآن فى الاسكندرية تعدت الثامنة مساء . . اى مضى عليه اكثر من ست عشرة ساعة وهو يعمل ويتحرك . . ومن الطبيعى بعد ذلك أن يحس بالتعب يسرى فى جميع عضلات جسمه . . والانهاك يضعف انفاسه . . كأنه فى معركة ليس من حق المقاتل فيها أن يستريح او يلتقط انفاسه . . وإن كان لا يدرى ما هى المعركة التى يخوضها ، ولماذا ليس من حقه أن يستريح . . ولكنها طبيعته التى ترسم شخصيته وهو يعمل . .

وفتح باب السيارة اللورى فى سخط والقى نفسه ممدا على مقعد القيادة وقد قرر أن ينام ولو ساعة واحدة . . وقد تعود فى مثل هذه الحالات أن ينام داخل السيارة . . ولكنه فى الواقع لا ينام أبدا . . إنه يحس انه نائم يقظان . . أو يقظان نائم . . انه لا ينام نوما كاملا مشبعا إلا على فراشه فى بيته . . وكل ما يحس به وهو نائم داخل السيارة هو نوع من الاسترخاء المريح . .

واسترخى . . نائم يقظان ، أو يقظان نائم . .

وفجأة قفز من رقدته منطلقا إلى خارج السيارة . . كأنه عرف وهو نائم إلى كم وصلت الساعة . . انها التاسعة . . وبدأ يطوف حول السيارة يراجع ماتم فى عملية الشحن . . لقد قاربت على النهاية ولم يبق إلا القليل

حتى يبدأ القيادة فى المشوار الطويل . . وتحرك كأنه يستكمل معداته . . فحمل وعاء الماء أى « الترمس » الكبير وذهب به إلى المقهى المجاور وملأه بالشاى الاسود الداكن . . انه أقوى ما يصونك من النوم ويحتفظ لك بيقظتك . . ثم أخرج علبة السجائر التى يحتفظ بها فى جيبه . . واطمئن . . انها لاتزال تحمل خمس سجائر . . سجائر خاصة محشورة بمسحوق الحشيش . . وتكفى للمشوار الطويل . .

وكانت الساعة قد تعدت العاشرة عندما جلس على مقعده واحتضن عجلة القيادة . . وتلى الفاتحة ثم تحرك باللورى الضخم ويجر وراءه الناقلة الثقيلة . . وظل وهو لا يزال داخل مدينة الاسكندرية يردد الآيات القرآنية . . وقد حفظ كثيرا منها خلال عمره . . وكان يختار منها الآيات التى تحمل دعوة الله إلى أن يصونه ويرحمه ويهديه . . وكانت من الآيات التى تعود أن يبدأ بها . . « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها . . لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . ربنا لا توءاخذنا ان نسينا أو أخطأنا . . ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . . ثم يعقبها بترديد آيات كثيرة من الاستعانة برحمة الله والالتجاء إليه والاتكال عليه . .

وكان قد خرج بالعمارة الضخمة التى يقودها من مدينة الاسكندرية . . وبدأ الطريق الطويل نحو القاهرة . . ومد يده والتقط علبة السجائر وفتحها وعلق سيجارة فى فمه وأشعلها . . لقد فعل كل ذلك بيد واحدة وهو قابض على عجلة القيادة بيده الأخرى . . لقد تعود أن يقوم بكل شئونه دون أن يتوقف بالسيارة . . وشد أنفاس الحشيش بكل ما فى أنفاسه من طاقة . . كأنه يلتقط أنفاسا من الفيتامينات التى تذوده بكل القوة التى يحتاج إليها . . ان الناس الجهلة لا يعرفون مدى هذه القوة التى يمكن أن يمدهم بها تدخين الحشيش . . إنها قوة تفرض على العقل البشرى التركيز على موضوع واحد فقط طالما هو تحت سيطرة الحشيش . . فإذا بدأ الحشاش يدخن وهو يفكر مثلا فى موضوع مشاكله مع زوجته وأولاده . . يظل كل عقله وكل احساسه وكل خواطره معلقة بهذا الموضوع طوال الفترة

التى يقضيها مسطولا . . كأنه أصبح استاذا متفرغا لدراسة تخصص فيها . . وهو الآن فى حاجة إلى أن يركز كل عقله واحساسه على موضوع واحد . . وهو موضوع القيادة . . لا يمكن أن يشتت عقله إلى موضوع اخر . . حتى أن كل خواطره محصورة فى القيادة . . انه لا يتحدث مع نفسه ولكنه يتحدث مع عجلة القيادة . . ويحس بها كأنها هى الأخرى كائن حى يشترك معه فى الحياة . . ولاشك أن الحشيش يساعده على استكمال قوة هذا التركيز . .

وانتهى من تدخين السيجارة ثم مد يده وفتح « الترمس » وصب لنفسه كوبا من الشاى الأسود . . كل ذلك بيد واحدة تترك اليد الأخرى متفرغة للقيادة . . إن الشاى الأسود كالطعام الدسم . . يستنزف كل مافى المادة المزروعة من اسرار إلاهية ليصبها فى بطن الشارب . . والسر الذى وضعه الله فى أوراق الشاى هو قدرتها على تنبيه أعصاب الإنسان والاحتفاظ بها صاحية نشيطة مستكملة كل وعيها . . وهو فى حاجة إلى هذه القوة . . قوة احتمال اعصابه وهو يقود هذه العمارة العالية التى تسير فى شكل سيارة لورى . . خصوصا وهو يقودها فى الليل المظلم . . وهناك من الناس الجهلة من يعتقد أن القيادة فى الليل أسهل وأرحم وأكثر أمانا من القيادة فى النهار . . لأن الطريق يكون فى الليل أخف فى زحامه وفى المعوقات التى تعترضه . . وهناك من السائقين الشبان من يطلق السيارة وهو يقودها فى الليل إلى منتهى سرعتها باعتبار أن الطريق خال . . أمان . . وهم مغفلون اغبياء . . فالقيادة بالليل اكثر تعرضا للمفاجآت من القيادة بالنهار . . لان مدى الرؤية يكون أقصر خصوصا فى الطرق التى لا تكون مضاءة . . ويجب أن تكون السرعة فى الليل أقل منها فى النهار . . وتركيز الانتباه اقوى . . إلى أن يخرج الله بالسيارة وقائدها من الظلمات إلى النور .

وكان قد قطع اكثر من ربع المسافة من الطريق الطويل عندما بدأ يشعر بجفنيه يزدادان ثقلا فوق عيناه . . إنه يحس بأنه على وشك أن يغفو . . وابتسم فى داخل نفسه مطمئنا . . لقد سبق أن سقط جفنيه فوق

عينيه مرات وغفا اثناء القيادة . . إن الله سبحانه وتعالى يخلق الإنسان ويرعاه مادام من الطاهرين المؤمنين . . والأسطى عطية يعتبر نفسه طاهرا مؤمنا ، ويعيش كل وجوده فى رعاية الله . . ولاشك أن الله يعلم مدى ما يبذله من جهد فى عمله النظيف الطاهر . . ويعلم ايضا مدى قوة احتمال تكوين هذا الإنسان لهذا الجهد . . لذلك فاذا زاد جهده عن قوة احتماله زوده الله بما يرعاه حتى ينتشله من الفناء . . اى انه إذا اغفى وهو يقود السيارة رعاه الله من ان يقع فى حادث او يضيع فى نكبة . . كأن الله هو ذاته يتولى قيادة السيارة ويتركه مغمض العينين حتى يريحهما . . بل إن الاسطى عطية يعتبر أن الله سبحانه وتعالى وضع فى عقل الانسان اجهزة الكترونية تتولى عنه وظائف الاعضاء التى خلقه بها إذا عجزت عن اداء مهمتها . . اى تقوم هذه الأجهزة بقيادة السيارة إذا نام قائدها . .

وقد منّ الله على الإنسان بالوصول إلى بعض اسرار هذه الأجهزة الالكترونية . . واستطاع الإنسان بهذه الأسرار أن يخترع آلات يضعها فوق الأرض ويستطيع بها أن يطلق طائرة تطير فى السماء ويحركها كما يشاء دون أن يجلس فيها قائد يصعد معها إلى السماء ويتولى قيادتها . . إن الطائرات التى تطير بلا قائد كالصواريخ التى لا يتولى الانسان قيادتها المباشرة وتقودها أجهزة الكترونية اصبحت منتشرة فى العالم . . وان كانت للأسف لا تزال مخصصة لتسليطها كأسلحة حروب . .

واكثر من ذلك . . ماهو التليفزيون ؟ . . إنه جهاز الكترونى يلتقط خطوط الصور الهائمة فى الفضاء الواسع ثم يجسمها وينقلها إلى شاشة تراها بعينيك . . اى أن واقع ما تراه على شاشة التليفزيون لا تراه مباشرة بعينيك بل تراه منقولا اليك بعيون اخرى . . عيون الكترونية . .

والإنسان لا يمكن أن يصل إلى علم الا من داخل علم الله . . والاكتشاف والاختراع ماهو الا بعض ما يسمح به للانسان بالوصول اليه من داخل الوجود الذى خلقه واقامه سبحانه وتعالى . . فالإنسان لم يصل

إلى الأجهزة الالكترونية من العدم بل وصل اليها من خلال قدرة الله . . وربما كان الله قد وضع فى كل شىء جهازا الكترونيا . . وقد ينام الانسان امام التليفزيون دون أن يتتبعه بعينيه بل يكون قد اغمض عينيه عنه ، ولكنه يقوم من النوم ويفاجأ بأنه يروى القصة التى كان يعرضها التليفزيون كأن فى داخل رأسه جهازا الكترونيا كان يلتقط ما يعرض امامه دون أن يراه بعينيه . . وكذلك قد يغفو سائق السيارة وهو يقودها . . فيترك الجهاز الالكترونى داخل عقله يتسلط على الأعصاب المؤدية إلى يديه اللتين تمسكان بعجلة القيادة ويحركهما بحيث تستمر السيارة فى طريقها وفى امان . .

وسقط جفنا الأسطى عطية فوق عينيه فعلا وهو ممسك بعجلة القيادة . . واغفى . . ولكنه لم ينم نوما كاملا . . انه نائم يقظ . . أو يقظ نائم . . ويحس بكل شىء دون أن يرى اى شىء . . كأنه مستسلم للمركز الالكترونى الذى يتحرك فى وعيه الداخلى . .

وفجأة . . أحس الأسطى عطية ـ وجفناه لا يزالان منسدلين فوق عينيه ـ بقدمه ترتفع عن مداس البنزين ثم تسقط بعنف وبكل قوتها فوق مداس الفرملة . . ووقفت السيارة اللورى الضخمة وهى ترتج . .

وكان الاسطى عطية قد رفع جفنيه عن عينيه ووجد السيارة قد حادت عن جانب الطريق وأصبحت فى منتصفه فى مواجهة سيارة لورى اخرى آتية من الناحية المواجهة من الطريق . . اى فى طريقها إلى الاسكندرية . . وكانت السيارتان على وشك تصادم احداهما بالأخرى . . لولا أن الفرامل حالت دون الصدمة وأوقفتها ملتصقتان تلامس واجهة احداهما الأخرى . . لقد كان السائق الآخر أيضا قد تمكن من ضغط فرامله قبل أن يقع التصادم . .

ونزل الأسطى عطية من السيارة وهو يحمد الله وقال ضاحكا للسائق الآخر :

- هل اغمضت عينيك أنت الآخر ؟

وقال السائق الآخر ضاحكا هو الآخر :

- عيناى لاتطيع أوامرى . .

وقال الاسطى عطية وهو يمد ذراعه داخل السيارة ويلتقط وعاء الشاى :

- الحمد لله . . خذ منى شفطة شاى حتى تقدر على فتح عينيك . .

وقال الآخر وهو يأخذ من عطية كوب الشاى :

- ألف حمد وشكر لله . . خذ هذه السيجارة حتى تربطك بالدركسيون . . وتصبرك على القيادة . .

وتبادلا كوب الشاى الأسود وسيجارة الحشيش . . وكأن كل منهما يحادث نفسه . . ثم صعد كلاهما إلى مقعد قيادته وتحركا فى هدوء كأن شيئا لم يحدث . .

وفى سلامـة الله . .

نوع آخر من الجنون . . . .

كانت أمها جميلة . . منتهى الجمال . . وليس جمالها جمال زاعق . . ولكنه جمال هادىء . . طيب . . كأنه نسمة ربيع يتمنى كل إنسان أن تهف عليه ويعيش فيها . .

ولكن أمها كانت أيضا مجنونة . . انهم كلهم وكل من حولهم يعرف انها مجنونة . . ولكنه أيضا جنون هادىء . . كأنه يختبىء من داخلها ولا يظهر عليها . . وأقوى مظاهر هذا الجنون أنها كانت دائما منعزلة بنفسها . . صامتة . . قد تمر عليها أياما دون أن تنطق بكلمة . . وتعيش كأنها لاتعرف احداً مماحولها ولاشيئاً ممايحيط أو يلم بها . . كأنها تعيش فى عالم آخر ترسمه لنفسها ولايعيش معها فيه أحد . . حتى أولادها منذ ولدتهم كانت تبدو كأنها لا تعرف أنها أمهم . . ما هى الأم . . حتى أنها كانت لا ترضعهم إلا إذا حمل أبوهم الواحد منهم ووضعه على صدرها ، واخرج صدرها ووضع حلمته بين شفتى الوليد . . وهى مستسلمة فى سعادة كأنها فى كل مرة ترضع فيها تكتشف شيئا جديدا يسعدها . . ولاتلبث أن تنساها . . إلى أن يحمل لها الأب الطفل مرة أخرى . . وخلال هذا الهدوء كانت تنتابها فترات شاذة عجيبة . . لقد دخلت المطبخ يوما وكانت أم رتيبة المشرفة على خدمة البيت غائبة عنه بعد أن انتهت من إعداد اطعمة وجبة الغداء . . فحملت الأم كل الأوانى التى تحمل هذا الطعام وسكبتها فى صفيحة الزبالة ثم وقفت فى هدوء أمام الحوض تغسل الأوانى كأنها ست بيت ممتازة . . وفى يوم جمعت كل ثياب أبنائها وانزوت بها فى غرفتها وأخذت تقلب فيها . . وربما خيل اليها أنها كلها اثواب فى حاجة إلى إصلاح وتعديل . . ولكنها بدلا من أن تمسك بخيط وابرة لإصلاحها

أمسكت بالمقص وأخذت تقص فيها ثوبا بعد ثوب . . ثم قامت وأعادتها قطعا ممزقة إلى مكانها . .

وكان أبوها هو اقرب افراد العائلة تحملا لجنون زوجته . . ولكنه كان يحبها إلى حد انكار هذا الجنون . . إنها شاذة ولكنها ليست مجنونة . . وقد بلغ من حبه لها وعدم سلواه لمعاشرتها إنه انجب منها سبعة . . أربعة أولاد وثلاث بنات . . وقد أطلق عليهم كلهم أسماء تبدأ بحرف الميم . . مصطفى . . مرتضى . . محمد . . منصور . . ماجدة . . منيرة . . ميرفت . . لمجرد أن اسم امهم يبدأ بنفس الحرف . . مفيدة . . إلى هذا الحد كان يحبها . . يحب هذه المجنونة . . ربما لأن جمالها يشبع متعته وهى مستسلمة له بين ذراعيه . . دون أن يؤثر هذا الجنون على هذه المتعة . . فهى بين ذراعيه مستسلمة له لا تحس بأنها تعطيه أو تأخذ منه . . ولكنها تحس فى كل مرة أنها تتفرج على شىء جديد يحدث لها . . وهو ما يثير متعته اكثر ويغلب متاعبه التى يلحقها به جنونها . .

وكان كل أفراد العائلة الكبار يلحون على الاب أن يعرض زوجته على طبيب أمراض عقلية . . طبيب مجانين . . ولكنه كان يرفض دائما . . فهى لا تحس بأنها مجنونة وعرضها على طبيب أو الحاقها بمستشفى سيكشف لها انها مجنونة أو على الاقل متهمة بالجنون . . وهذا يجعلها تجن اكثر . . وتتعمد أن تغالى فى تصرفاتها الشاذة كأنها تعطى لنفسها حق المجانين . . أى لا تكتفى بشذوذها الذى لا تتعمده بل تفتعل تصرفات أبعد شذوذاً مادامت قد اصبحت تعرف أنها مجنونة . . وهذه نظرية معروفة فى العلاج النفسى . . فيجب ألا يعالج المريض على يد طبيب مختص . . أو أن يتخفى الطبيب المختص فى شخصية أخرى وهو يعالجه حتى يخفى عنه ولا يواجهه بأنه مريض . . ثم إن العائلة تعودت على احتمال هذا الجنون . . وهو نفسه يتحمل أضعاف ما يتحمله أى فرد منهم . . فلا داعى لعرضها على طبيب . . ومن يدرى لعل الله يشفيها من شذوذها . . ولا يدرى أحد بعد كيف ستكون ؟ لعلهم يندمون على أيام الشذوذ . .

وكانت المفاجأة قاسية . . لقد خرجت الأم مفيدة من عزلتها داخل غرفتها وهى تبتسم ابتسامة واسعة . . كأنها ترسل بها قبلة لكل ابن من ابنائها . . ثم وقفت فى الشرفة المطلة من الدور العاشر . . وشبت على قدميها وابتسامتها لاتزال بين شفتيها وألقت بنفسها . .

وماتت . .

ولعل كل ما كان يدور بعقل أمها ساعة ألقت بنفسها إلى الموت هو محاولة الفرجة على العالم الآخر الذى سمعت عنه . .

ولاشك أن أباها كان صادقا فى حزنه على ضياع زوجته . . لقد كان يحبها رغم كل ما فيها . . ولكن حزنه لم يؤثر فى طبيعته كرجل إدارى بالنسبة لبيته وعائلته . . وحسن الإدارة يفرض عليه أن يجد زوجة أخرى تساعده فى إدارة البيت والإشراف على ابنائه السبعة . . ولم يمض سوى اربعة شهور على انتحار زوجته الأولى حتى كان قد تزوج الثانية . . وكان ذكيا فى اختيارها فهى امرأة لا تنجب . . وكانت زوجة سبق أن طلقت لعدم انجابها . . وهذا يوفر عليه متاعب التوفيق بين أولاد الزوجة الأولى وأولاد الزوجة الثانية . . ويوفر عليه مشاكل تعلق الأم بأبنائها . . ووضعهم فوق ابناء ضرتها . . حتى لو كانت الضرة قد ماتت . . وفعلا دخلت الزوجة الجديدة بيتهم وهى تحب الأولاد والبنات وتفيض عليهم بمنتهى الحنان كأنها أخيرا وجدت لنفسها أبناء . . وخصوصا حبها لها . . لميرفت . . فهى اصغر البنات . . وقد أخذتها بعد وفاة أمها وهى لاتزال فى العام الأول من عمرها . . وتولت هى امدادها بكل مطالب الحياة . . وأصبحت تحس بها انها ابنتها فعلا . . بل كانت تميزها عن اخوتها فيما تضيفه عليها من رعاية واهتمام . .

وسارت العائلة فى حياة جديدة وخصوصا بعد أن تخلصت من جنون الأم التى ماتت . . ولكنها أيضا حياة غريبة . . وكان الأب هو دائما القائد الأعلى للعائلة . . يتحمل مسئولية كل دقيقة تمر بها . . فهو الذى يطعمها

ويشترى بنفسه لوازم الطعام . . ويشرف على تنظيف البيت واعداده . . ولا يتحرك أى فرد من افرادها إلا بأمره . . وكان الأولاد السبعة كلهم صامتين حتى بينهم وبين بعض . . ولا شيء يجمعهم . . كل منهم له طبيعة وشخصية قائمة بذاتها . . وكل منهم يختار حياة خاصة لا علاقة لها بحياة الآخر . . حتى كان من المستحيل أن تجمعهم فى تقاليد عائلية واحدة . . حتى فى المظاهر العادية . . فمصطفى مثلا يواظب على تناول الطعام مع والده . . الإفطار والغداء والعشاء . . ومرتضى يتناول الإفطار ولا يتناول الغداء منتظرا العشاء . . ومحمد يكتفى بالافطار وحده ولا يأكل بعده مهما تحايلت عليه زوجة ابيه . . وماجدة تعتبر تناول الطعام كأنه تلطيخ لأمعائها ، ولا تأكل إلا وأبوها أو زوجته يحشر لها الطعام فى فمها حشرا . . و . . و . . وكانت المشادات تقوم أحيانا داخل العائلة ولكنها كانت دائما مشادات مع الاب . . . لا تشترك فيها الزوجة . . إنها زوجة مستسلمة كل الإستسلام لزوجها ولأولاده مهما كانت غرابة ما تستسلم له . . وكان الاب على قدر ما يشكو من متاعبه العائلية يشيد ويتفاخر بابنته الصغرى . . ميرفت . . إنها الوحيدة التى رزقه الله بها لتعوضه عن كل ما يلقاه . . إنها جميلة كأمها . . منتهى الجمال . . ولكنها ايضا عاقلة . . منتهى العقل . . لقد ورثت عن أمها الجمال . . وورثت عنه العقل والجدية . . انها الوحيدة بين اولاده التى يحبها . . منتهى الحب . . ويرتاح اليها . . منتهى الراحة . . وقد كانت ميرفت هى الوحيدة التى تجمع العائلة كلها . . وتنتقل بينهم واحدا واحدا وتبادله حكاية . . أى حكاية . .

والأيام تمر . . وكانت اختها الكبيرة ماجدة قد بلغت الرابعة عشرة عندما بدأوا يلاحظون عليها تطورها . . لقد بدات تنعزل عنهم جميعا . . ولا تتبادل معهم ولو كلمة . . وتقوم من النوم كل صباح دون أن تعد نفسها للذهاب إلى المدرسة . . لا لأنها ترفض ، ولكن كأنها لا تذكر أنها يجب أن تذهب إلى المدرسة . . إلى أن يأتى ابوها ويصرخ فيها ويشدها من فوق السرير ويكلف زوجته بأن تدخلها الحمام وتلبسها ثيابها ويدفعها إلى أن

تنضم إلى أختيها ويذهب بهن إلى المدرسة . . إلى أن تطورت ماجدة أكثر واصبحت تقضى كل وقتها وهى جالسة تحت السرير . . كأنها تختبىء منهم ولا تريد أن ترى واحدا منهم . . او لعلها تتصور انها تلعب معهم لعبة استغماية . . ولكنها بدأت بعد فترة تقوم من جانب اختيها وهن نائمات على سرير واحد . . وتلقى نفسها وتنام تحت السرير . .

ومرت فترة طويلة والعائلة متحملة شذوذ ماجدة . . ووالدها يتهمها بأنها كسولة جاهلة لا تريد أن تكبر وتعيش كالبنات الناضجات وتكره الذهاب إلى المدرسة كما يكرهها كثير من الصغار . . بل إنه قرر أن يحرمها من المدرسة حتى يريح نفسه من متاعبها . . وتركها فى البيت لا تخرج منه لانها هى نفسها لا تريد أن تخرج . . ويعتبر انها تلعب بإصرارها على الجلوس تحت السرير . . ولكن زوجته كانت تنظر إلى ماجدة كأنها تشاهد مأساة . . ولكنها لا تتكلم ولا تحاول أن تفسر حالتها . . كأن ليس من حقها ان تتدخل فى هذه الحالة . . انما هو حق زوجها وحده . . أما ميرفت فقد كانت الوحيدة التى تبذل اكثر فى مراعاة اختها ماجدة . . وتجلس معها طويلا تحادثها . . وماجدة تتحدث فى بساطة كأنها فتاة عادية وتجيب على كل سوءال إجابة طبيعية حتى لو كانت غريبة . . وقد قالت أنها تجلس تحت السرير لأنه المكان الذى تحس فيه بالهدوء ، وتبتعد فيه عن دوشة البيت والعائلة . .

إلى أن لاحظت ميرفت ان اختها بدأت تبكى كثيرا وهى منعزلة وحدها . . . واستطاعت بلباقتها أن تصل إلى سر هذا البكاء . . ان اختها تحب ابن الجيران . . ولكن أين رأت ابن الجيران . . لعلها شاهدته مرة من النافذة . . هل مجرد المشاهدة من بعيد تكفى للحب . . ثم انه يكبرها كثيراً . . فماذا أحبت فيه ؟ أو لعلها لم تره أبدا حتى ولا من النافذة . . فهى لم تشاهد اختها أبدا تطل من النافذة . . وبالعكس أن من عادتها أن تبقى النافذة مغلقة حتى لو تشادت مع اختيها . . لعلها تخيلت قصة حب تعيش فيها . . واختارت ان يكون بطلها هو ابن الجيران لأنه البطل العادى

فى معظم قصص الحب . . ولكنها كانت تعيش خيالها كأنه واقع إلى حد أن تبكى دائما كأنها فتاة محرومة من حبيبها فعلا . . بل إنها بدأت تجلس وتكتب خطابات طويلة . . خطابات حب . . ولكنها لا تحاول أن تكتشف وسيلة لتصل خطاباتها إلى حبيبها . . ولكنها ما تكاد تنتهى من كتابة خطاب حتى تضعه فى ظرف لا تكتب اسما عليه ثم تلقيه من النافذة . . إن كل ما تتصور أنه يجمع بينها وبين حبيبها هى النافذة . . ولعلها تتصور أنها لو مدت يدها من النافذة فستمسك بيد حبيبها . . ولكنها لم تحاول أبدا أن تمد يدها من النافذة .

إنها مجنونة . . لاشك إنها مجنونة . . وأعلن الأب جنونها وصاح :

ـ لقد ورثت الجنون عن أمها . .

ولم يكتف الأب بأن يتحمل جنون إبنته كما تحمل جنون أمها . . ربما لأنه لا يخرج بشىء من هذا التحمل . . ليس له مصلحة خاصة فى تحملها . . إنه لا يأخذها فى احضانه كل مساء كما كان يأخذ أمها . . وبدأ يطوف بها على أطباء الأمراض العقلية ، وإنتهى إلى وضعها فى مستشفى المجاذيب بالعباسية . .

وميرفت تلاحقها وتطن فى اذنيها كلمة أبيها عن أختها . . لقد ورثت الجنون عن أمها . . هل الجنون يورث . . إن كل العائلة تقول أنها أقرب الابناء إلى أمها . . ورثت عنها كل جمالها وكل ملامحها . . فهل سترث عنها الجنون أيضا ؟ !

ولكن لماذا تخاف الجنون . . إن كل أخوتها ليس بينهم مجانين الا أختها ماجدة . . وأختها منيرة عاقلة هادئة . . وقد تزوجت وان كانت تعيش مع زوجها بعيدا فى أسيوط ولم يصلهم عنها أى أخبار عن أى علامة من علامات الجنون . . وأخوتها الصبيان قد كبروا وكل منهم يعيش حياة مستقرة لا يعكرها أى شذوذ . . وان كانوا كلهم متباعدين عن بعضهم

لا يعلم احدهم شيئا عن الآخر . . ولا يهمه أن يعلم شيئا عن تفاصيل حياة أخيه . . ولكن من أدراها . . ان جنون أمها كان يوصف بأنه جنون هادىء . . ربما كان كل إخوتها مصابين بهذا الجنون الهادىء . . وهل يجب أن تثبت لنفسها انها لم ترث جنون أمها . . وليست مجنونة حتى هذا الجنون الهادىء . .

وقد كان مظهر جنون أمها هو إنعزالها الدائم . . كل ما فيها منعزل عن دنياها . . أحاسيسها . . وعقلها . . ووعيها . . منعزلة حتى عن ابنائها . . ويجب أن تطمئن ميرفت إلى انها لا تنعزل بنفسها أبدا . . يجب ان تعيش مع كل ما حولها . . حتى تثبت لنفسها أنها ليست مجنونة . . وليست معرضة للجنون . .

وبدأت تتعمد المغالاة فى فرض نفسها على كل من تعرفه . . إنها فى البيت لا تكف عن ملاحقة أبيها وزوجته وأخوتها بالتدخل فى تفاصيل حياة كل منهم . . وكلامها كله صياح ونظراتها كلها كأنها قفزات . . وفى المدرسة ايضا تعيش مع كل الطالبات . . وتضم نفسها إلى كل المجموعات . . وتشترك فى كل الرحلات . . وتقبل كل الدعوات . . وهى دائما تنجح فى كل امتحان . . انها تتعمد النجاح حتى تؤكد إنها ليست مجنونة . . وبعد أن التحقت بالجامعة اتسع انطلاقها . . إنها تعيش كل ما فى الجامعة . . حتى قصص الحب . . وهى نفسها لم تستطع أن تميز هذا الحب . . أو يطرأ عليها إحساس تفسره على إنه حب . . ولكنها كانت تكتشف أن إحدى زميلاتها فى حالة حب مع زميل . . وتتساءل لماذا لا يحبها هى هذا الزميل . . هل ينقصها شىء ليحبها . . أم أنه يعتبرها مجنونة . . والمجانين لا يصلحون للحب . . وتسعى وراء هذا الزميل حتى تفرض عليه أن يحبها بدلا من زميلتها . . ووجدت نفسها تعيش فى عشرات من قصص الحب . . لا تكاد ترتبط بقصة مع زميل حتى تنتقل إلى قصة مع زميل آخر . . ولكن كان فى ميرفت إيمان أقوى منها وهى أنها لا تسمح لأى شاب تجمعه بها قصة حب بأكثر من أن يمسك يدها . . انها لا تعطيه اكثر . . وهى تعلم

ما هو اكثر . . تعلم كل شيء عن القبلات والاحضان والتلاصقات . . ولكنها لا تستطيع . . وهو ليس ايمانها بمبادىء الحرص على اعتزازها بشرفها . . ولكنها طبيعتها . . فهى لا تطيق أن تضع شفتيها بين شفتى رجل . . أو تتركه يلف ذراعيه حول خصرها . . لا تطيق . . بل اكثر من ذلك . . انها لا تفكر أبدا فى الزواج حتى تسعى إلى تحقيقه . . ولا يطرأ على بالها . . ان حياتها كلها متجمعة فى ذاتها ولا تحوجها لان تدخل فيها اى ذات اخرى . .

وقد عرف كل الطلبة طبيعتها . . انها تريد مظاهر الحب ولا تعيش فيه . . ولا تعبر عنه الا بوضع اليد فى اليد . . وتنقلاتها بينهم فى هذه المظاهر جعلتهم يستهينون بها . . ولا يحسدون بعضهم بعضا عليها . . كل منهم يعلم مصير الآخر معها . . ويستهينون . . ويضحكون . . ويعتبرونها مجنونة . . إنه نوع من الجنون . .

ولم تعد العائلة تعتبرها فتاة عادية . . واخوتها يتحملون الضجة التى تثيرها حولهم ساخرين . . وزوجة أبيها تتحمل صامته ويدفعها حبها لها إلى تكذيب نفسها . . إنها ليست شاذة . . كل بنت لها خصالها . . اما ابوها فقد بدأ ييأس . . لقد ورثت الجنون عن أمها . . جنون له مظهر آخر . . ولكنه بالأمل . . انها ناجحة فى دراستها . . ومن يدرى لعلها تنجح بعد مدة فى تجريد شخصيتها من شذوذها . . ولكن ميرفت بعد أن تخرجت بدأت حياة غريبة . . إنها لا تريد أن تنتظر حتى تعينها الحكومة فى احدى الوظائف . . إنها ليست مجنونة كأمها حتى تعزل نفسها فى وظيفة حكومية . . كبقية الناس الناجحين . . وتستطيع أن تقتحم ابواب النجاح . .

لماذا لا تكون مذيعة فى التليفزيون . . حتى تظهر صورتها امام الناس وتحادثهم ؟ !

وبدأت تقتحم حياة العاملين فى التليفزيون . . وهى تقف أمامهم لا

كأنها تشحذ منهم أو تستعطفهم أو حتى تحاول اقناعهم ، ولكنها تتكلم كأنها تتفضل عليهم بأن تكون معهم وتظهر بينهم . .

ثم فجأة اتجهت اتجاها آخر . . لماذا لا تكون نجمة من نجوم السينما . . لماذا لا تحل محل فاتن حمامة . . إنها اجمل منها . . ولا شك انها اقدر منها . . إنها الجيل الذى يحل محل فاتن . . وهى قوية تستطيع ان تحقق كل ما تريد . . وليست ضعيفة منعزلة كما كانت أمها او اختها ماجدة . . واقتحمت حياة العاملين فى السينما . . وهى ايضا لا تحس بأنها تسعى وترجو ولكنها تتفضل عليهم بالظهور بينهم . .

ثم خطر على بالها خاطر جديد . . إنها يجب أن تكون مشهورة . . يجب أن تعرفها البلد . . تعرف هذه الفتاة الجميلة العبقرية القوية . . كيف تشتهر ؟ يجب أن تكتب كل الصحف عنها . . ستدلى بأحاديث صحفية تؤكد قوة الجيل الجديد . . وبدأت فعلا تتصل بكثير من الصحفيين . . كل من تقرأ له أو تعرف باسمه تبحث عن رقم تليفونه وتحدد معه موعدا . . ولا تريد منه شيئا إلا أن يكتب عنها وينشر صورتها . . وحديث معها . .

وقد تعرضت لكثير من المغامرات مع كل هذه الاتجاهات التى تخطر على بالها . . إن كل من تصل اليه يستقبلها كفتاة جميلة . . بسيطة . . مجنونة . . وإما أن يطمع فى التمتع بجمالها . . أو يشفق عليها لبساطتها . . أو يهرب من جنونها . . ولكنها لا تحس بما يستقبلها الناس به . . لا تحس إلا بثقتها فى قوتها . . القوة التى سترت لها طبيعتها فى الا تعطى لأى رجل إلا يدها . .

ولكن هذه المرحلة من حياتها كانت تفرض عليها أن تعيش الليل بعيدا عن بيتها . . الليل الذى يجمع العاملين فى التليفزيون والسينما والصحافة . . ولم يحتمل أبوها أن تغيب عن البيت فى الليل . . آخر موعد لها هو ان تعود فى السابعة مساء على الأكثر . . وهى فى دخيلة نفسها مرتبطة بأبيها . . لا تستطيع ان تتحرر منه بالأبتعاد عنه . . فأصبحت

تتعمد ان تعود فى الساعة السابعة . . وهو يغلق الباب بالمفتاح بعد ان تصل ويحتفظ به . . وسحب منها المفتاح الذى كان من حقها أن تحمله كبقية اخواتها . . وقد وجدت من حقها أن تتحايل حتى لا تطفىء شعلة مشاريعها الضخمة . . وكانت قد قاومت طويلا حتى لا تلجأ الى هذا التحايل ولكنها لم تستطع ان تستمر فى المقاومة . . وتركت فراشها فى منتصف الليل وأفراد العائلة كلهم نيام . . وفتحت الباب وخرجت . . انها على موعد مع الكوكب السينمائى الذى وعدها بأن تكون بطلة فيلمه القادم . . وقد اغلقت الباب بعد ان وضعت بين ضلفتيه ورقة سميكة حتى يظل مفتوحا لها بعد ان تعود . . وقد عادت دون ان يحس احد فى العائلة بشىء . .

ولكنها فى المرة التالية قامت من فراشها وارتدت ثيابها ثم فتحت الباب . . وقبل ان تخرج فوجئت بزوجة أبيها أمامها . . وحاولت ان تمنعها من الخروج . . إنها زوجة مطيعة لا تستطيع ان تخالف اوامر وتعاليم زوجها مهما بلغ حبها لها . . وقامت معركة بينهما وكل منها حريص على الا يرتفع صوته حتى لا يصحو الأب ، أو احد من الأخوة . .

ودفعت ميرفت زوجة ابيها فى عنف . . فسقطت على الأرض وانشقت رأسها بارتطامها بالحائط . . وتركتها ميرفت كما هى ، واسرعت بالخروج بعد ان وضعت قطعة الورق السميك بين ضلفتى الباب . . وكأن شيئا لم يحدث . .

وعادت ميرفت كعادتها . . وفوجئت بالبيت كله متيقظا ملتفين حول زوجة ابيها يضمدون رأسها المشقوق . . وهى تنظر اليهم دهشة كأنها تتساءل ماذا حدث . . وصرخ ابوها وهو يتهال عليها بكفيه ضربا :

ـ مجنونة . . ورثت الجنون عن امك . .

ولم يترك المجنونة فى جنانها . . ووضع ابنته فى مستشفى العباسية للمجانين . . أو هو سجن المجانين

لقد أفرجت مستشفى المجانين عن ماجدة بعد عام واحد لأنه ثبت انها مصابة بجنون هادىء يمكن ان تعيش به فى بيت العائلة . .

ولكن لم يصدر بعد قرار بالإفراج عن ميرفت . . إنها تحمل نوعا آخر من الجنون .

رأس غير رأسي..

كانت نساء العائلة مجتمعات تتوسطهن الأخت الكبرى دولت .. وأصواتهن ترتفع كالضجيج وكلهن يتحدثن فى وقت واحد وفى موضوع واحد . . كأن كل منهن لايهمها إلا أن تتكلم ولا يهمها أبدا أن تسمع . . وكن كلهن فى انتظار الأخ الأصغر مراد التى نشرت الصحف كلها صباح اليوم خبر ترشيحه فى الإنتخابات . .

وكانت دولت تبدو بينهن كأنها الرئيسة أو كأنها عالمة تعرف كل شىء عن الإنتخابات . . لاتكف عن الكلام . . وتصرخ فى وجه من تسمعها ولا يعجبها كلامها . . أو تصرخ صرخة مبتسمة لواحدة أخرى تؤيدها ولكنها تفضل أن تسكتها . . وكانت تقاطعهن جميعاً قائلة بالصوت العالى :

ـ ليس بينكن من تعرف عن الإنتخابات ما أعرفه . . إنها دنيا واسعة . . كل حجر فيها تحته سر . . قد يكون تحت الحجر ثعبان سام . . وقد يكون تحته زجاجة كولونيا معطرة . . واسألونى أنا . .

وكن يسألنها . . فهن يذكرن أنها عاشت الإنتخابات عندما سبق أن رشح زوجها نفسه فى الإنتخابات منذ أكثر من خمس عشرة سنة . . وكان معروفا أنها جاهدت معه وتعبت مع كل متاعبه حتى فاز وأصبح عضوا مهما فى البرلمان . . وهى تقول كأنها تعيش ذكريات سعيدة :

ـ مازلت أذكر كل خطوة . . وكل هزة رمش . . وكل فنجان قهوة شربته وساهم فى إصابتى بقرحة فى المعدة . . وكل طبق أكلته وسبب لى المغص الكلوى . . بل انى كنت أيامها لا أحس حتى بالموت لو اقترب

منى . . ويكفينى أن زوجى شوقى ينتصر على منافسيه ويفوز . . وسأتحمل أيضا إلى أن يفوز أخى مراد . .

وعاد مراد . .

وألقى بنفسه منهكاً على مقعد بين نساء العائلة . .

والتففن حوله يتصايحن ويسألن . . وهو لايكاد يسمع صياحهن ولا أسئلتهن . . إلى أن هدأن قليلا من حوله وتباعدن عنه . . واقتربت منه أخته الكبرى دولت وسألته فى صوت هامس جاد كأنها تبدأ معه العمل ؟

ـ ماذا فعلت اليوم ؟

ونظر مراد إلى أخته الكبرى وقدر أن من حقها أن تسأله وقال وهو يزفر أنفاسا متعبة :

ـ هلكت . . ذهبت فى الصباح إلى مكتب الحزب . . ثم ذهبت إلى مكتب وزير الداخلية . . ثم طفت بمائة بيت . . ومائة مقهى وكافيتريا . . ثم زرت مائة شخص . . ولا أدرى بماذا خرجت من كل هذه المشاوير . . انى أتبع التقاليد القديمة التى كان يتبعها المرشحون . . لابد أن هناك وسائل جديدة لاكتساب الأصوات توفر مشاوير النفاق . . إنى منذ اليوم الأول وأنا أحس بالندم على قبول ترشيحى . .

وصاحت فيه دولت كأنها تنهره :

ـ إياك أن تستسلم للتعب أو الندم . . وسيعوضك الفوز عن كل ذلك وتفرح . . والبلد كلها ستفرح بك . . انك لا تدرى كم تعب زوجى وهو مرشح وكم فرح بالفوز . . إنها معركة لايفوز فيها إلا الأبطال . . وأنت بطل . .

وسكتت دولت برهة ثم استطردت :

- هل بدأت الإتصال بالكمسارية . .

وقال مراد فى دهشة :

- أى كمسارية ؟

وقالت دولت وهى تنظر إليه كأنها تتهمه بالغباء :

- كمسارية الترام والمترو والأوتوبيس الذين يسيطرون على كل أحياء الدائرة . .

وقال مراد فى برود :

- إن معظمهم أو كلهم ليست اسماؤهم مسجلة فى قوائم ناخبى الدائرة حتى احتاج اليهم بإعطائى أصواتهم . .

وصاحت دولت :

- اصواتهم ليست مهمة . . المهم ان كلا منهم يمكن أن يكون منشورا حيا ناطقا للمرشح . . إنه وهو يوزع تذاكر ركوب الترام أو المترو أو الاوتوبيس يستطيع أن يهمس بإسمك فى اذن الراكب . . بل يستطيع أن يكتب إسمك على التذكرة حتى ينقله الراكب إلى تذكرة الانتخاب . . بل ان زوجى شوقى كان يطبع منشورات ويسلمها لهؤلاء الكمسارية حتى يوزعوها على الركاب . . وتصور كم يبلغ عدد الركاب فى الدائرة وكلهم من الناخبين الذين سنحصل على أصواتهم . .

وقال مراد وهو يبتسم ابتسامة باردة :

- فكرة . . سأحاول . .

وصاحت دولت :

- لا تكتفى بالمحاولة . . يجب أن تضع للكمسارية مشروعا تنفيذيا . . وتكون من بينهم هيئة تمثلهم على اتصال دائم بك وتنطق بإسمك وتنفذ تعليماتك . . وقد تكلفك هذه الهيئة كثيراً . . فمعظم الكمسارية غلابة وفى أشد الحاجة إلى الكثير . . فلا تبخل عليهم . . وكل شىء بثمنه . . وفوزك فى الانتخابات ثمنه غال . .

وقال مراد ضاحكاً :

- حاضر يا أبلة دولت . .

وقالت دولت بسرعة :

- وسأبدأ أنا بتكوين الهيئة الخاصة بى . .

وقاطعها دهشاً :

- أى هيئة هذه التى تخصك ؟

وقالت مستطردة :

- هيئة ستات البيوت . . إنى أعيد نفس ما كنت أقوم به أيام كان زوجى مرشحا . . لقد كونت هيئة من ستات البيوت ضمت كل الجارات والصديقات وطبعا سيدات العائلة . . ولعلك لا تدرى قيمة ست البيت فى التأثير على نتائج الإنتخابات . . إنها تملك أولا صوتها كناخبة وصوت زوجها واولادها وبناتها الكبار . . ثم أصوات جميع أفراد عائلتها . . ثم تستطيع التأثير على صوت كل من يتعامل مع البيت . . صوت الخضرى والبقال والجزار . . و . . و . . وإذا اجتمعت اغلبية ستات البيوت حول تأييد مرشح واحد . . فكأنهن أصبحن ثورة ديكتاتورية لا يستطيع صوت أن يفر من بين أيديهن ومن تحت إرادتهن . . لقد كان من بين عضوات الهيئة التى كونتها ست بيت رفضت فى صبيحة الإنتخابات أن تقدم الإفطار لزوجها وبقية أفراد العائلة إلا بعد أن وضعت أمامهم المصحف الشريف

وأقسد ا عليه أن يتوجهوا إلى مكاتب الإنتخابات وينتخبوا زوجى شوقى . . وإذا كنت قد حققت نجاح زوجى فسأحقق نجاح أخى وحبيبى مراد . .

وقال مراد مبتسما لأخته ابتسامة باردة :

ـ فكرة يجب أن نحققها واعتمد عليك فى تحقيقها . . وهى فكرة توحى إلى بفكرة أخرى قريبة منها . . وهى أن نكون هيئة أخرى لاكتساب اصوات البوابين . . . ولاشك ان كل بواب يمكن ان يكون له تأثيرا على اكتساب اصوات كل سكان العمارة التى يجلس على بابها . .

وقاطعته قائلة وهى تنظر إليه كأنها تشفق عليه من جهله :

ـ لا . . لا . . إن طبيعة شخصية البواب هى النفاق . . إنه مضطر بحكم عمله أن ينافق كل سكان العمارة حتى يضمن الحصول على بقشيش كل شهر . . فهو لا يتحمل مسئولية إقناع سكان العمارة بل ينتظر ساكنا إلى أن يدفع له أحد السكان أكبر مبلغ لشراء صوته الإنتخابى . . ورغم ذلك فقد يخدع هذا الساكن ويعطى صوته نظير مبلغ آخر قبضه من عمارة أخرى . . المهم . . لا تعتمد على البوابين . .

وقال ساخرا :

ـ تحت أمرك . . فأنت أستاذة صاحبة خبرة فى الإنتخابات . .

وواجهته بمفاجأة أخرى :

ـ هل اتصلت بالحانوتى . .

وانتفض دهشا قائلا :

ـ أى حانوتى تقصدين ؟

ـ حانوتى الدائرة . .

وقال مقاطعا :

ـ ماذا أعمل به ؟

وقالت دولت فى إصرار :

ـ إنه أقوى شخصية شعبية فى الدائرة وله تأثير كبير فى إقناع الناس . .

وصرخ مراد نافرا :

ـ هل تقصدين إقناع الناس بالموت . . إنه لو تدخل فى الدعاية لى بين الناس فكأنى أنا عزرائيل ، وكأنه يريد من الناس أن تنتخب عزرائيل حتى يحقق لهم عدد أكبر من الموتى ويكسب هو أكثر من عمليات نقل الجثث . . لا يا ست دولت . . ابعدى عنى الحانوتى . . أن الناس ستهرب منه وتهرب منى . . إنه شعار الموت . .

وقالت دولت كأنها تدافع عن نفسها :

ـ هذا كلام قديم والدنيا تقدمت وأصبحت تضع كل صاحب مهنة فى مكانه الصحيح . . فالحانوتى ليس مسئولا عن الموت . . إنه رجل أعمال . . والناس كلها محتاجة إليه . . بل ويتقربون ويتوددون إليه حتى يهتم بهم عندما يحتاجون إليه . . ويجاملهم بتخفيض أتعابه . . وهو بحكم عمله مرتبط بكل عائلات الدائرة ارتباطا يصل إلى حد الصداقة فليست هناك عائلة لم يكن لها ميت أو فى انتظار من يتوفاه الله من أفرادها . . فهى فى حاجة دائما للحانوتى وفى حاجة إلى صداقته واحترامه . . وكل عائلة تعلم انها لو انتخبت مرشح الحانوتى فسيجاملها بالاهتمام بإجراءات الجنازة والدفن . .

وعاد مراد يصرخ :

- إن الناخب لا يفكر فى الموت وهو يدلى بصوته . . وارحمينى من هذه السيرة . . سيرة هذا الحانوتى . .

وتركها وفر مبتعداً عنها كأنه يهرب من الموت . .

وجلست دولت وحدها ساهمة تستعيد ذكرياتها . . إنها هى نفسها كانت كأخيها لاتطيق أن تذكر أو تتذكر الحانوتى . . ولا تطيق معرفته شخصياً ولو من بعيد . . إن الحانوتى لايوجد إلا فى يوم الموت . . ولا أحد يطيق أن يعيش هذا اليوم إلا إذا مات له عزيز لديه . . بل ان شخص الحانوتى لا يخطر على بال أحد من المعزيين أو من المشيعين حتى يشكروا أفضاله . . كما لا يخطر على بالهم عزرائيل الذى اختطف المرحوم . .

ولكن زوجها شوقى عندما رشح نفسه فى الانتخابات منذ خمسة عشر عاما اعتمد اعتمادا كبيراً على حانوتى الدائرة الحاج مدبولى . . كان دائما معه . . ويصحبه كثيراً فى طوافه بأحياء الدائرة . . وقد رفضت ايامها ان تشترك مع زوجها فى الاعتماد على هذا الحانوتى . . ولم تتنازل بزيارة عائلته ، كما كانت تزور عائلات الناخبين . . رغم إلحاح زوجها عليها ومحاولة إقناعها بأن الحانوتى له شأن كبير فى نتائج أى انتخابات . . إلى ان توفى الحاج مدبولى الحانوتى فجأة قبل موعد الانتخابات . . وأصر زوجها على أن تذهب بنفسها لتقدم العزاء لأهله وتشيع الجنازة وتزرف عليه كل ما تستطيع من دموع . . وبلغ إصرار زوجها إلى حد الصراخ والتهديد حتى خافت على حياتها الزوجية كما بدأت تخاف على مصير زوجها فى الانتخابات . . أى بدأت تقتنع بأهمية الحانوتى . .

وذهبت إلى بيت الحانوتى . . ورغم أنه فى حى محترم وفى شقة من عمارة من العمارات المحترمة . . إلا انها عندما دخلت فوجئت بمجتمع بلدى بعيداً عن أى مظهر من مظاهر الحياة المودرن . . كل قطع الاثاث من النوع البلدى المتأخر . . والنساء كلهن ملتفات بالملاءات السوداء البلدى . . جالسات على الأرض . . وإن كانت هناك بعض المقاعد الخشبية منتشرة

بجانب الحوائط . . وحتى الكلمات التى يرددنها فى نعى المرحوم كلها كلمات غريبة . . بلدى . . يلى دخلت فى بيتى الثلاجة يا رجلى . . ياللى تركت لى شقة تمليك يا حبيبى . . ياللى مافيش حتة فى بيتى إلا من خيرك يا روح قلبى . . و . . و . . وكأنهن ينعين إكرام الله للمرحوم بأن زاد دخله بزيادة زبائنه من الموتى . .

وجلست على مقعد من المقاعد التى وجدتها دون أن تنطق بكلمة إلا كلمة تعزيه تضطر إليها . . وطبعا لم تحاول أن تذرف دمعة واحدة على المرحوم . . إلى أن جاءت سيدة شابة وجلست بجانبها تتلقى عزاءها . . إنها اجمل شابة بين المعزيات . . جميلة فعلا جمالا يلفت النظر حتى نظر النساء . . ولو انه جمال بلدى . . وتلبس ثوبا على الطراز البلدى . . وإن كانت رقيقة مهذبة فى كلامها ، ولا تصرخ هذا الصراخ ولا تردد نفس الكلام التى تردده بقية النساء . . إنها فتحية زوجة عبد الرحمن ابن المرحوم الحاج مدبولى . . وكانت تحمل على ذراعيها مولودا صغيرا . . وعندما خرج نعش المرحوم تجمع كل النساء فى البلكون ليودعنه بصراخهن الوداع الأخير . . والتفتت فتحية حولها تبحث عمن يحمل لها طفلها لتنطلق إلى البلكون . . ثم فاجأت دولت بأن وضعت الطفل على ركبتها . . وتقبلته دولت فى صمت وتحملته حتى بعد ان منح نفسه الحرية وتبول على ثوبها . . وما كادت أمه تعود من البلكون حتى اعادت لها طفلها بسرعة كأنها تخاف أن تتركه لها . . ولكن جمال فتحية ورقتها وهى تشكرها خفف عنها ما اصابها من قرف وهى تخطو خارجة داخل ثوبها المبلل بما قذفها به الطفل . .

ورفضت فى اليوم التالى ان تخضع لالحاح زوجها أن تذهب ايضا إلى عائلة الحانوتى وتتم ايام العزاء . . رفضت فى إصرار وأجبرته أن تقوم إحدى إخواته بهذا العزاء بدلا منها . .

وحدث بعد شهور أن توفت أم دولت . . وفوجئت بأن فتحية زوجة عبد الرحمن الحانوتى . . الشابة الجميلة الرقيقة هى التى جاءت بنفسها

لتقوم بعملية تغسيل المرحومة أمها . . معتذرة بأن حماتها زوجة الحانوتى مدبولى مريضة وقد جاءت بدلا منها . . ووقفت دولت معها وهى تغسل امها . . كانت تمد يديها إلى جسد المرحومة فى رفق وحنان وهى تتلو القرآن والدعوات فى صوت رقيق كأنها تغنى لها . . حتى أن دولت أحست بحب امها اكثر وفتحية تغسلها فشاركتها فى تغسيلها كأنها تتبارك بجسد امها وهى تلمسه بكفيها بل كانت تنحنى وتقبل امها على جسدها الميت وتسكب عليه دموعها . . كل ذلك من تأثير رقة وحنان فتحية وهى تغسل أمها . .

وقد وجدت نفسها تحب فتحية وتدعوها أحيانا إلى بيتها كصديقة . . وكان زوجها عبد الرحمن قد ورث مسئولية ابيه وأصبح حانوتى الحى . . وإن كان قد تطور بمظهره عن مظهر أبيه وأصبح يرتدى دائما البدلة أو القميص والبنطلون لا الجبة والقفطان ، كما كان يظهر أبوه ، وكما هو مظهر الحانوتية . . كما غير من المجتمع الذى كان يعيشه أبوه وأصبح اكثر انطلاقا فى المجالات الحديثة كالجلوس مع أصدقائه فى المقاهى الحديثة والاشتراك فى السهرات والتردد على دور السينما . . وان كان قد احتفظ بلقب حاج الذى كان يسبق اسم أبيه الحاج مدبولى . . رغم أن أحدا لا يذكر انه قام بأداء فريضة الحج . . وكان قد احتفظ بصداقة شوقى وسعى معه فى حملته الانتخابية وأصبح أقرب إليه مما كان عليه والده . .

المهم أن دولت تحررت من عقدة الحانوتى . .

وعليها هى أن تحرر أخاها مراد من هذه العقدة . .

وقد بذلت جهداً واسعاً كان من بينه أن اقامت دعوة إلى العشاء دعت اليها الحاج عبد الرحمن الحانوتى وزوجته فتحية وأخاها مراد وزوجته مع حضور زوجها شوقى النائب السابق . . وكانت كلها سهرة الحديث فيها يدور عن الانتخابات . . وقد لاحظت أن أخاها مراد رغم إشتراكه فى الحديث إلا أنه لا يبذل مجهودا كافيا لاكتساب الحاج عبد الرحمن الحانوتى والارتباط به وتجنيده فى خدمة الإنتخابات . .

ولم تكف دولت عن بذل الجهد فى كل مكان . . لقد جعلت من هيئة ستات البيوت التى كونتها قوة كأنها زوابع تقصف بالحى كله حتى تقتلع كل المنافسين لأخيها فى الانتخابات . . وكل يومها طواف على البيوت والدكاكين والشوارع والحوارى تدعو لانتخاب أخيها . . ولكنها كانت تثور على تكاسل مراد . . إنه لا يشاركها فى كل هذا الجهد الذى تبذله . . انه يبذل أقل من نصف ما تبذله . . ويتحرك فى هدوء وبرود كأنه يؤدى واجبات رسمية ثقيلة . . ووصلت بها الثورة إلى حد أن صرخت فى وجهه :

ـ أنت لا تصلح لترشح نفسك فى الانتخابات . .

وقال ساخراً :

ـ إنك لاتفهمين ما هى الإنتخابات . .

وصاحت فى ثورة :

ـ كيف لا أفهم وقد سبق أن عشت انتخاب زوجى . .

قال مستمراً فى سخريته :

ـ ولا زوجك يفهم فى الانتخابات . .

وصرخت :

ـ كيف لا يفهم وقد فاز وأصبح نائباً فى البرلمان . .

وقال فى برود :

ـ لقد فاز بالمقعد لا لأنه يفهم فى الانتخابات ولا بفضل ما بذله للمرشحين . . ولكن على أيامه كان الاتحاد الاشتراكى هو الهيئة الوحيدة التى توزع المقاعد . . وكانت قد قررت أن يكون لزوجك شوقى مقعد . . وانت تذكرين صديقنا ابراهيم الذى رشح نفسه فى دائرة أخرى ، وكان

هناك إجماع على انه نال قمة أغلبية أصوات الناخبيين ورغم ذلك أعطى المقعد لمنافسه عبد التواب رغم انه كان منافسا كسولا يبخل على الناخبين حتى بفناجين القهوة وزجاجات الكازوزة . . ولكن كان هو الذى اختاره الاتحاد الاشتراكى ليجلس على المقعد . .

وعادت دولت تصرخ :

ـ هذه ادعاءات كاذبة تحاول أن تبرر بها تراخيك وكسلك . . وعلى كل حال فقد انتهى الاتحاد الاشتراكى . . واصبحت الدنيا أحزابا . .

وقاطعها مراد قائلا فى ابتسامة مرة :

ـ وأصبحت الانتخابات بالقائمة . . هل تفهمين معنى الإنتخاب بالقائمة . .

قالت وهى تتحداه :

ـ ماذا تريدنى أن أفهم منها ؟

وقال مراد من خلال ابتسامته الساخرة :

ـ ان الانتخاب بالقائمة معناه انى لست مسئولا عن نفسى ، ولكن الحزب هو المسئول عنى . . أى بعد أن كان الاتحاد الاشتراكى هو المسئول عن توزيع المقاعد وزعت المسئولية على أحزاب كل حزب منها مسئول عن توزيع المقاعد التى يستطيع أن يحصل عليها . . وقد اخترت أنا أن أضع اسمى فى قائمة الحزب الذى أحترمه ويضم أصدقائى . . ولكن الحزب وهو يقوم بالمساعى الانتخابية يركز كل اهتمامه على الاسم الأول الذى يوضع على رأس القائمة . . لأن هذا الإسم إذا فاز بأغلبية أصوات الناخبين فازت معه بقية الاسماء التى تحملها القائمة . . لذلك فأنت تجدين القائمة التى أعلنها كل حزب تحمل على رأسها إسما براقا لامعا تعرفه مصر كلها . .

وتجدين بعده أسماء عادية قد يكون بينها أسماء لا يعرفها ولم يسمع بها حتى أهل الدائرة نفسها . . وأنا واحد من هذه الأسماء العادية وكل ما أعتمد عليه هو صاحب الإسم الذى وضع على راس القائمة . . وأنت تعرفين انه إسم محترم . .

وتلجلجت دولت قليلا ثم عادت تصيح :

ـ إنى أريد الناس أن ينتخبوك لشخصك حتى لو اضطروا أن ينتخبوا معك بقية أسماء القائمة . . أريدك أن تكون أقوى حتى من صاحب الاسم الذى يرأس القائمة . . ونحن نستطيع أن نكون الأقوى . .

وقال مراد وهو ينظر إلى أخته كأنها جاهلة مسكينة :

ـ ليس لنا أى قوة الا من خلال الحزب . . إنها انتخابات بين أحزاب لا بين أشخاص . . أى أن الذى ليس له حزب لا يستطيع أن يرشح نفسه . . وانت تعلمين إنى إنسان واقعى لذلك فإنى أركز على نشاطى وكل جهدى داخل الحزب واتابع جهوده التى يبذلها حول الإسم الأول بل واشترك معه فى الدعاية الانتخابية لهذا الاسم . . كما اتابع اتصالاته بالهيئات الرسمية الحكومية التى تشرف على إدارة الانتخابات . . والباقى من وقتى وجهدى أبذله للناخبين . . هذا هو الطريق الصحيح لأ ضمن الحصول على المقعد . .

وسكتت دولت وهى تائهة . .

ولكنها عادت تبذل كل جهدها للدعاية لأخيها وإقناع الناخبين بانتخابه . .

وسقط مراد فى الانتخابات . .

لم يحصل على مقعد . .

وكان أصدقاوءه يقابلونه مواسين . . كيف حدث هذا . . كيف سقط فى الانتخابات . . وكان مراد يجيب مع ابتسامته الساخرة :

ـ انا لم أسقط . . لا شىء يمس شخصى . . ولكن سقط الحزب فى ترشيح الإسم الذى وضعه على رأس القائمة . . إنه رأس غير رأسى . .

◐ ♦ ◑

هو .. والحمـــــار ..

كانت السيارة الحكومية المحترمة تجتاز شارع الهرم إلى أن وصلت إلى قرب نهايته فاستدارت إلى ضفة ترعة المنصورية . . واستمرت تتحرك فى سرعة هادئة إلى أن وصلت إلى قرية كفر الجبل . . وبعدها انتهى الطريق المرصوف وبدأ طريقا ليس مسفلتا ، وان كان مفتوحا أيضا لمرور السيارات . . ولكن السيارة توقفت منذ نهاية الطريق المرصوف ونزل منها السائق وانحنى باحترام كبير يفتح الباب الآخر . . . وانتصب واقفا بجانب السيارة كأنه جندى يؤدى تحية رسمية . . إلى أن نزل منصور بيه البرهومى من السيارة . . وقال فى صوت هادىء متعال :

ـ غدا الساعة السادسة والنصف عند الغروب . . لا تتأخروا . . ثم سار فى خطوات وتيرة نحو حمار واقف كأنه فى انتظاره ويمسك به صبى ريفى وبجانبه خفير يرتدى جلبابا ريفيا محترما زاهيا . .

وانحنى الخفير يقبل يد منصور بك وحاول الصبى أيضا أن يقبل يده . . وفى بساطة رفع منصور بك ساقه واعتلى ظهر الحمار وقاده فورا فى الطريق غير المرصوف الذى يشق الاراضى الزراعية . .

وقال السائق وهو لايزال بجانب السيارة :

ـ الناس تتمنى أن تترك ركوب الحمير وتركب سيارات . . وسعادة البيه يترك السيارة ليركب الحمار . . ثم استطرد ضاحكا :

ـ اللى اصله حمار يظل طول عمره حمارا . .

* * *

ومنصور البرهومى يهتز فوق ظهر الحمار مرتديا بذلته الكاملة ورباط العنق يلتف حول عنقه فى جلال واحترام . . والحمار نحيل قصير حتى أن أقدام منصور تكاد تلامس الأرض وهو فوقه . . والبردعة التى يجلس عليها فوق ظهر الحمار تبدو قديمة مهلهلة لا تليق بمظهر منصور بيه . . وقد ابتعد عنه الرجل والصبى اللذان كانا يصاحبان الحمار واصبحا يجريان خلفه من بعيد وكل منهما حريص على ألا يقترب منه . . كأن هذه هى التقاليد التى فرضها عليهما منصور . . أى ألا يقتربا منه وهو فوق ظهر الحمار . .

ومد منصور ذراعه وربت بيده على عنق الحمار وقال بصوت مسموع :

ـ كيف الحال يا محروس . . الحال يحيرنى يا محروس . .

وشد منصور قامته واستطرد قائلا :

ـ ما رأيك يا محروس . . لقد رفضت فى العام الماضى خمسة آلاف جنيه بحجة الإصرار على النزاهة . . أتذكر ماذا كانت النتيجة . . لقد أخذ عباس وكيل الوزارة عشرة آلاف . . ولو كنت قد قبلت أنا الخمسة لما وصل اليه ولا مليم . . الله يرحمه . . وأنا الآن وكيل الوزارة . . والمعروض عشرة آلاف . .

وضحك منصور ساخرا واستطرد :

ـ ان ظفر اصبع قدمى يساوى رقبة عباس . . والعشرة آلاف إذا باعت إلى يجب أن تصبح عشرين . . ولكن النزاهة يا محروس . . الشرف . . ان سمعتى فى الحكومة كلها تبرق كالبرق . . فكيف أضحى بهذه السمعة . . ولكن إذا رفضت أنا العشرة آلاف فكم تكون إذا وصلت إلى الوزير . .

وارتعشت جفون منصور فوق عينيه وعاد يحادث نفسه بالصوت المسموع :

ـ كن عاقلا يا منصور . . لقد عشت طول عمرك نظيفا . إنك لاتخاف احدا ، ولكنك تخاف الله . . وقد عشت طول عمرك والله يغنيك . . ويصون عزتك وكرامتك أمام هؤلاء الجرابيع . . ولن تمد يدك إلى مليم واحد حرام . . ما رأيك يا محروس . . هل انا شريف أم غبى . .

والحمار يتجه إلى طريق آخر متفرع عن الطريق الزراعى . . ثم يدخل فى طريق ثالث . . دون حاجة إلى قيادة . . إلى أن وصل إلى البيت فى آخر الأرض الزراعية . . ووقف من تلقاء نفسه . . وأفاق منصور من الخواطر التى تعصف بعقله على صوت ابنه شريف وهو يصيح مهللا فى فرح :

ـ بابا . . بابا . .

ونزل منصور من فوق ظهر الحمار فى بساطة كأنه تعود على الركوب والنزول . . ومد ذراعيه ورفع ابنه يحتضنه ويقبله قائلا :

ـ اشتريت لك العجلة يا شريف . . وستصلك اليوم . .

وشريف وهو فى أحضان والده ينظر إلى الحمار فى غيظ وسخط وقال لأبيه :

ـ لماذا لا تأتى إلى البيت بالسيارة يا بابا . . إن هذا الحمار ثقيل الدم وعجوز . . يكاد يموت . .

وقال منصور وهو يبتلع ريقه كأنه يبتلع كذبه :

ـ ركوب الحمار رياضة يا ابنى . . انه ينشط الدورة الدموية . . وقد تعودت على ركوب الحمار « محروس » حتى لم أعد أستطيع أن أستغنى عنه رغم أنه أصبح عجوزا . .

وسرح منصور فى خياله وهو يعود ويقبل ابنه . . ان ابنه لم يفهم ولم يقدر أبدا ماعوده على ركوب الحمار . . وما دفعه إلى أن يظل فى حاجة إلى

ركوبه حتى بعد أن ارتقى فى حياته عن الطبقة التى تركب الحمير . . بل حتى وهو يشعر ان الناس تعتبره شاذا غريبا وهو مصمم على ركوب الحمار . . ان هذا الحمار كان دائما هو الوحى الذى يوحى له بكل ما يقنع عقله . . بل كان مستشاره الذى يناقشه قبل أن يتصرف اى تصرف . . وكل عقل فى حاجة إلى أن يستعين بما يوحى له . . لو كان من الشعراء مثلا لاعتمد على المناظر الطبيعية أو على الظهور الجميلة يستوحى آيات الشعر التى يكتبها . . أو قد يعتمد الرجل الذى يفكر على ما توحى له به امرأة يحبها . . أو قد يعتمد على ادمان تدخين الحشيش أو ادمان الخمر وربما اعتمد على صديق بالذات يحس وهو يتحدث اليه ويناقشه أن عقله منطلق متفتح صريح . . ولا يهم ما يقوله هذا الصديق من رأى ، بل المهم هو أن المناقشة تصل بعقله هو إلى رأى . . وهو لا يحس بعقله متفتحا منطلقا الا وهو على ظهر حمار . . وتعود بمجرد أن يركبه أن ينطلق معبرا عما يدور بعقله بصوت عال مسموع . . لا يسمعه الا الحمار . .

وقد بدأ الارتباط بالحمار منذ كان طفلا فقد كان الحمار يأخذه كل صباح إلى الكتاب . . وكان لايكاد يعتلى ظهره حتى يبدأ فى مراجعة الدروس التى تلقاها والتى سيحاسبه عليها شيخ الكتاب . . وقد يبدأ فى تلاوة الآيات القرآنية المفروض عليه أن يحفظها . . ثم يلكز الحمار بقدميه ويصيح فيه . . سامع يا حمار . . اسمعنى ثانية هذه الآية . . ويعود هو نفسه تلاوة الآية . . ويصيح مرددا دروس اللغة العربية . . كاف ضمه كو . . كاف كسره كى . . ثم ينهال بكفه ضربا فى الحمار وهو يصيح . . احفظ يا حمار . . وقد يصيح يروى مشكلة من المشاكل التى تطرأ عليه . . الواد محسن يصطاد العصافير ببندقية أبيه الرش . . ماذا افعل أنا . . ان أبى يرفض أن يعطينى بندقيته . . هل أسرقها . . ثم ينغز الحمار صائحا . . ما تشوف لها طريقة يا حمار . .

حتى بعد أن كبر ودخل المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم وصل إلى كلية الحقوق بالجامعة كان يركب الحمار كل صباح إلى ان يصل إلى شارع

الهرم . . ومن هناك يستقل الاتوبيس إلى حيث يذهب . . ويعود ليجد الحمار فى انتظاره ليعود به إلى البيت . . وهو كما هو . . لايكاد يركب الحمار حتى ينطلق لسانه بكل مافى عقله . . وحتى بعد أن أصبح موظفا فى الحكومة لم يفكر فى أن يستبدل الحمار بسيارة ولو صغيرة . . . أو بموتوسيكل . . أو حتى بدراجة . . كما لم يفكر فى الانتقال من بيت العائلة القريب من قرية كفر الجبل . . والحمار لا يزال ينتظره وان كان لم يعد يحمله إلى شارع الهرم بل يكتفى به إلى بداية الطريق المرصوف الذى كان قد شق على شاطىء المنصورية . . وكان حماره الاول يسميه « مبروك » . . ولكن « مبروك » انتهى . . مات . . فبدأ يركب « محروس » . . وهو لم يشتر « محروس » . . والا لما اشترى هذا الحمار القصير الهزيل . . ولكنه كان الحمار الذى وجده فى البيت . . من أفراد العائلة . . وتعود عليه بسرعة . . بل وجد نفسه وهو فوقه ينطلق اكثر مع افكاره وينتهى إلى آراء كانت دائما صائبة . . إنه مستبشر دائما بمحروس . . ولا ينسى الأيام الطويلة التى قضاها معه قبل أن ينتهى إلى طلب نعمات للزواج . . لقد كانت كل عائلته ترفض هذا الزواج . . وهو نفسه كان يجد أن العائلة على حق . . فنعمات هى ابنة فلاح مؤجر عادى لا يليق بنسب العائلة . . التى تملك عشرين فدانا ملكية خالصة . . حتى لو وزعت الأرض بين الأخوة فلن يقل نصيب كل منهم عن خمسة افدنة . . فكيف يتزوج ابنه فلاح لا يزال يحمل الفأس . . وأولاده كلهم أصبحوا عمالا وواحدا منهم سافر إلى ليبيا والثانى سافر الى العراق . . انها فضيحة عائلية لو تزوج نعمات . . ولكن الواقع ان نعمات كانت ملء أحلامه منذ نمو شبابه وكانت لاتزال صبية . . ولم تكن كبقية الفلاحات . . لم ترض ابدا ان تستجيب لأبن صاحب الأرض . . كأنها تعتبر نفسها من عائلة كبيرة وليس هناك طريق لمن يريدها الا الزواج . . وقضى شهورا وهو يناقش الحمار « محروس » دون أن يستسلم لوحيه . . إلى أن استسلم أخيرا وتزوج نعمات . . وأصبح يعيش معها النعيم كله . . والهناء كله . . ونعمات هى التى توحى له دائما بأن يبقى فى هذا البيت . . لقد هاجرت عائلته كلها من كفر الجبل وهو وحده الذى بقى فيها . . كأنه تزوج كفر الجبل منذ تزوج نعمات . .

* * *

وفى صباح اليوم التالى كان الصبى يقف بالحمار « محروس » أمام الباب ويقف بجانبه الخفير . . وخرج منصور البرهومى يحمل ابنه شريف . . ثم أنزله على الأرض قائلا بعد أن قبله :

ـ ستصلك السيارة لتحملك إلى المدرسة . . بالسلامة . .

وقال شريف كأنه يهم بالبكاء :

ـ تعال معى فى السيارة يا بابا . .

وقال منصور ضاحكا :

ـ لو كنت تحب بابا لتركته يزاول رياضته ويرعى الدورة الدموية . . ثم اعتلى ظهر الحمار وابتعد به بسرعة من أمام ابنه كأنه يهرب من محاسبته له . . وظل الصبى والخفير يجريان وراء الحمار من بعيد . . كما تقضى التقاليد . . وانطلق منصور يقول بصوت عال :

اسمع يا محروس . . لنكن واقعيين ونعترف بأن شركة مدبولى للمقاولات لا تسرق ولا تغش . . إن المشروع الذى اتمته فى العام الماضى شهد له جميع الخبراء الذين تسلموه بأنه فى منتهى الروعة والكمال . . وقد مضت شهور منذ تسلم هذا المشروع ولم يظهر فيه شرخ واحد ولا سقطت منه طوبة . . صحيح أنهم يدفعون لكثير من الموظفين نظير تسهيل المعاملات ، ولكنهم لا يدفعون على حساب العمل . . أو من تكاليف المشروع نفسه . . ولكنهم يدفعون على حساب رفع قيمة العملية . . أى إذا كانت التكاليف تصل إلى الف جنيه يرفعونها إلى عشرة آلاف حتى يغطوا قيمة التسهيلات التى يحصلون عليها من الموظفين . . اى أن الموظف لا يأخذ مليما من شركة مدبولى . . ولكنه يأخذ من الحكومة . . كأنه يأخذ علاوة أو مكافأة شرعية لا أكثر .

وسكت منصور البرهومى قليلا كأنه يستعيد أفكاره ، ثم قال وهو يربت على عنق الحمار محروس :

ـ لماذا تسمى هذه العلاوة رشوة . . حتى إذا لم تكن علاوة فلماذا لاتكون سمسرة . . أو عمولة . . العمولات التى تعودت الشركات ان تدفعها للوسطاء فى أى عملية تقوم بها . . إن موظف الحكومة هو الوسيط بين الشركة والدولة . . أى أن من حقه أن يحصل على عمولة . . وكل كبار وصغار الموظفين يعيشون على هذه العمولات . . بل لعلك سمعت عن وزراء بل ورؤساء وزارات كان لهم نصيب فى هذه العمولات رفعتهم الى مستوى أصحاب الملايين . . ولو كانت الدولة قد وصلت من الرقى الى حد التعامل مع الواقع لاعترفت بنظام العمولات واعتبرته نظاما قانونيا شرعيا . . وتركت موظفيها يحصلون على حق العمولة علنا . . وان كان الموظفون سيخسرون لأن قيمة العمولة الشرعية تكون دائما اقل من قيمة العمولة السرية غير القانونية . .

وانحنى منصور يربت على عنق الحمار محروس قائلا كأنه يلوم نفسه :

ـ لماذا أكون انا الموظف الوحيد فى الدولة التى يتمسك بالشرعية . . وبالقانون . . وبالنزاهة . . وبالشرف . . إن كل موظفى الدولة يتقاضون عمولات تصل من جنيه واحد الى مائة جنيه الى مليون جنيه . . وكلهم والحمد لله معروف عنهم التمسك بالشرعية وبالقانون والنزاهة والشرف .

ثم اعتدل منصور فوق ظهر الحمار ، وقال وهو يبتسم كأنه هدأ واستقر على الرأى الذى جاء الوحى به :

ـ حاضر يامحروس . . اتفقنا . . سأكون واقعيا ولن أخيب أمل مدبولى وشركته . .

* * *

وكان الحمار قد وصل الى أول الطريق المرصوف . . . وكانت السيارة الحكومية المحترمة تقف فى الانتظار . . وانحنى السائق فى احترام كبير يفتح

الباب ووقف منتصبا كالجندى فى موقف رسمى . . الى أن نزل منصور بيه البرهومى من على ظهر الحمار وركب السيارة . .

والتقى منصور بمندوبى شركة مدبولى فى مكتبه بالوزارة فى اجتماع سريع . . وفى نفس المساء كان المهندس عبد المنعم مدبولى كبير مهندسى الشركة نفسه فى زيارة منصور ببيته القريب من كفر الجبل . . مدعوا على العشاء . . ولم تظهر بينهما زوجته نعمات . . ممنوع . . ممنوع . . انها فلاحة وقد احتفظ بها الى اليوم كفلاحة . . وتقاليد الفلاحين أشرف من تقاليد اهل المدن . . ممنوع أن تشارك الزوجات فى اجتماعات الرجال . .

وتم الاتفاق على كل شىء . . أن شركة مدبولى دفعت لوكيل الوزارة السابق عشرة آلاف . . رحمه الله . . ولكنها ستدفع لمنصور الوكيل الحالى خمسة عشر الفا . . وقال المهندس الكبير عبد المنعم مدبولى :

ـ انك اكبر . . واصعب . .

وقال منصور ساخرا :

ـ المشروع أكبر . . ان ميزانيته توازى ثلاثة اضعاف ميزانية المشروع السابق . . وبالحساب الرقمى فان المبلغ لايجب أن يقل عن عشرين الفا . .

وقال المهندس الكبير هو يتنهد كأنه يستسلم :

ـ امرك . . ودعنى اتشرف بدعوة نفسى الى العشاء عندك مرة أخرى يوم الخميس القادم . . ويكون قد تم تجهيز العقود . .

وقال منصور ساهما :

ـ بإذن الله . .

وقام يودع المهندس الكبير . . سيعود اليه الخميس القادم وهو يحمل

حقيبة صغيرة تضم العشرين الفا . . إنه يعلم ان ما يتفق عليه لايدفع بشيك على البنك . . بل يدفع كأوراق مالية . . ويجب أن يدقق بألا تحمل هذه الاوراق أرقاما مالية متتالية . . وإلا كان من السهل ضبطه بها واثبات التهمة عليه . . ومهما كان يجب أن يفرح . . إنه اكبر مبلغ يصل اليه دفعه واحدة فى حياته . . وهو لا يمكن أن يتهم نفسه بالرشوة . . إنه ينال حقه . . حق العمولة . . حق الواقع . .

* * *

ولم يكن قد مضى اكثر من أربعة أيام . .

وعاد منصور البرهومى من مكتبه ووقفت به السيارة فى آخر الطريق المرصوف ورأى الحمار « محروس » فى انتظاره . . وترك السيارة مندفعا على غير عادته وهرع الى الحمار كأنه يهجم عليه ثم رفع ساقه وضربه بالشلوت ضربة عنيفة . . وقفز الحمار من الضربة ، ولكنه لم يستطع أن يفر والصبى الصغير لايزال يمسك به . . فضربه منصور شلوتا آخر كأن ساقه التى يضرب بها ساق مجنون . . ولكنه رغم ذلك أمسك بالحمار وركبه واستطاع أن يخضعه لإرادته وسار به نحو البيت . . وما كاد يبتعد به خطوات حتى صاح :

ـ أتدرى ماحدث ياحمار . . لقد وضعت كل شركة مدبولى تحت الحراسة . . وقبضوا على عبد المنعم مدبولى وبدأوا التحقيق معه . . وهم يقولون انه اعترف بكل شىء . . الحمد لله . . انى لم أوقع له اى ورقة ولم يضع فى يدى ولا مليم . . الله انقذك فى آخر لحظة يامنصور . . بعد يوم واحد كنت ستوقع كل الأوراق وتتسلم العشرين الف جنيه . . كنت سأضيع نتيجة غباء هذا الحمار « محروس » . .

وضرب بطن الحمار بقدميه المتدليتين فوقه وهو يصيح :

ـ كان يجب أن تقدر أن الأحوال تغيرت . . وان الصفقة الت تمت فى العام الماضى لايمكن أن تتكرر هذا العام . . ولكنك كنت غبيا . . اول مرة كاد

غباؤك يلقى بى فى داهية ويخرب بيتى . . لقد أصبحت حمارا عجوزا لاتستطيع أن توحى ، أو تلهم إلا بخراب البيوت .

وعاد يضرب فى بطن الحمار « محروس » بقدميه ثم هدأت انفاسه قليلا وعاد يقول :

ـ ولكنهم قد يطلبونى فى التحقيق للشهادة ضد مدبولى . . ان كل الوزارة تعلم انى كنت ثائرا ضد صفقة العام الماضى وأنى استطيع أن أشهد بكل التفاصيل . . ولكنى لو شهدت على مدبولى فقد يفضحنى ويفشى السر ويعلن انى طالبته بعشرين الف جنيه نظير توقيع الأوراق . . ولكنه لايملك اى ورقة أو أى دليل يثبت به هذا الكلام . . وسأكذب حتى لو اضطررت أن اقسم بالقرآن كذبا ويحل على غضب الله . . عاجبك كده ياحمار ياغبى . . كأنى أصبحت على شفا هاوية . . اما أن أنفذ بجلدى أو تحل بى داهية . . هذا ما وصلت اليه ياحمار . .

وكان الحمار قد وصل به الى البيت ونزل من على ظهره ورفع ساقه وضربه بالشلوت مرة أخرى ثم التقط عصا غليظة كانت ملقاه على الأرض وانهال عليه ضربا . . وهو يصيح :

ـ القى بى الغباء فى داهية . . لم اكن أدرى انك فى منتهى الغباء . . يا حمار . .

وكان ابنه شريف قد خرج اليه وكأنه فرح وهو يرى أباه يضرب فى الحمار فالتقط هو الآخر عصا من على الأرض وأخذ يضرب فيه . . الى أن وقع الحمار « محروس » على الأرض وهو يرفس بسيقانه الأربع فى الهواء كأنه يستغيث . . والقى منصور البرهومى بالعصا من يده . . وانفاسه تتهدج . . وكله يرتعش . . ثم صاح فى وجه الصبى والخفير :

ـ ابحثا لى عن حمار آخر . . لن اخرج غدا بهذا الحمار . .

◐ ♦ ◑

وفشلت فى الطريق الآخر ..

عادت زينب من المسرح فى الساعة الثانية صباحا بعد أن انتهت المسرحية ودون أن تحيى أحد من أعضاء الفرقة المسرحية أو تقول كعادتها . . تصبح على خير . . وفتحت باب البيت ودخلت وخطواتها ترتعش بها . . ووقفت برهة تنظر الى زوجها الدكتور محجوب وهو جالس كعادته على مكتبه . . بينما رفع اليها محجوب رأسه يستقبلها صامتا بابتسامة كبيرة طيبة فى انتظار أن تقدم عليه وتلقى نفسها على ساقيه كعادتها كأنها ترتاح من مشوارها الطويل . . وتقبله . . وتقول له كلمات حلوة ترفع من حلاوة قبلاتها . . ولكنها وقفت بعيدة عنه ، وقد انتقلت رعشتها الى كل ملامح وجهها ، ثم ألقت بنفسها على الأريكة وانهارت فى البكاء بصوت عال كما يبكى الأطفال . .

وظل محجوب جالسا الى مكتبه وابتسامته الواسعة على شفتيه . . لقد تعود من زوجته زينب على كثير من المفاجآت . . ليست هذه هى المرة الأولى التى تعود باكية وتنهار فى البكاء . . وقد تعود اليه يوما وتفاجئه بالاندماج فى هز وسطها والرقص . . وقد تعود اليه وتسقط مستلقية على ساقية وتنام فورا نوما عميقا الى أن يحملها بين ذراعية ويرقدها على فراشهما . .

وقد ظلت زينب تبكى مدة طويلة وجسدها يرتعش كله فوق الاريكة . . الى أن هبت جالسة وصاحت من خلال دموعها :

ـ هذه آخر ليلة أمثل فيها هذه المسرحية . .

وقال محجوب فى هدوء وكأنه يربت عليها بابتسامته :

- لماذا .. ماذا حدث أكثر مما يحدث ؟

وعادت زينب تصيح :

- إنى لم أعد اطيق هذا الثعبان .. انه لن يشبع من لدغى بسمومه الا بعد أن يطمئن الى انه قضى على .. بعد أن يتأكد من أنى لم أعد شيئا بجانب عظمة جنابه .. وقد قلت لك انه استدعانى بالامس وقال لى انه سيجرى تعديلا بسيطا فى الحوار يلقيه فى المشهد الذى يجمعنا فى الفصل الثانى .. ولم أعترض .. انى لا أستطيع أن أعترض فحضرته هو صاحب الفرقة وصاحب المسرح وهو الآمر الناهى ولا راد لكلمته .. ثم إنى لم أعترض لأن هذه المسرحية تدور كلها حول شخصية البطلة .. وانا البطلة .. انا كل شىء فى هذه المسرحية .. انا صاحبة كل هذا النجاح الذى يضج به المسرح كل ليلة .. وإذا أراد أن يزيد كلمتين على الحوار الذى يلقيه أمامى فى هذا المشهد فلا يقلل هذا من قيمة الدور الذى اقوم به .. وقد سألته بعد أن قال لى انه سيعدل فى الحوار .. هل نقوم ببروفة جديدة .. فرد على بأن التعديل لن يشمل المشاهد وكل ما على هو أن أنتظر الى أن يتم المونولوج الذى يلقيه .. ووافقت بلا اهتمام .. الى أن فوجئت بالمصيبة هذه الليلة ونحن نمثل .. إنه لم يضف الى الحوار كلمة أو كلمتين .. أضاف لنفسه مونولوجا استمر اكثر من ربع ساعة .. يؤديه مع حركات غريبة جديدة يقوم بها .. وقد كدت اجن وأنا فى انتظار ان ينتهى من الالقاء حتى أبدأ انا .. بل كنت أقاوم أن أهجم عليه ونحن على خشبة المسرح حتى أسد فمه عن الإلقاء .. إن ما أضافه يشوه المسرحية .. ولكنه لم يكن يهمه أن يشوهها كان كل ما يهمه ان يأخذ المتفرجين منى ويربطهم بنفسه .. ومنذ البداية وهو يكره هذه المسرحية لأنها تقوم على شخصية البطلة .. لا على شخصية البطل .. أى عليه هو .. بل انه لم يقبل عرض هذه المسرحية إلا تحت الحاح المتعهد الذى يمده بكل إيراد المسرح .. حتى انه غير فى عنوانها الأصلى .. لقد كان العنوان « راهبة فى طريق الجحيم » .. ولكن كلمة راهبة تنسب الى

امرأة .. أى الى بطلة المسرحية .. فألغى كلمة راهبة من العنوان وجعله « فى طريق الجحيم » .. حتى لا أمتاز عنه .. حتى لايأتى المتفرجون الىّ ولا يأتون إلا اليه .. ولن أستمر فى تمثيل هذه المسرحية اذا صمم على الاستمرار فى الحوار والمشهد الذى أضافه لنفسه .. بل أنى لن أظهر أبدا على مسرح وجدى فرج .. ولن أعمل مع هذا الأستاذ الكبير الحقير ابدا .. لن أظهر معه أبدا على مسرح واحد ..

وقام الدكتور محجوب من على مكتبه وجلس بجانب زينب واحتضنها بزراعه وقبلها فوق جبينها ثم قال فى هدوء :

- ليس فى كل هذا شىء غريب .. إن القديم يغار دائما من الجديد .. وهو نجم قديم ، وانت نجمة جديدة تلمعين بسرعة .. وحتى عندنا فى كلية الطب .. الاستاذ يغار من المدرس .. والمدرس يغار من المعيد .. والقديم يحاول أن يسد الطريق أمام الجديد .. واخبار العيادات الطبية الخاصة يتناقلها الأطباء كأنها أسرار الأعداء .. والطبيب الذى تدر عيادته دخلا اكثر من الآخرين يواجه أعداء أكثر كل منهم يبحث عن طريق لخراب هذه العيادة والقضاء على هذا الطبيب .. هذه هى الدنيا .. والنجاح ليس طريقا مريحا يجتازه الموهوبون .. النجاح معركة .. ليست معركة بين الأعداء ، ولكنه معركة داخل بوتقة تضم الزملاء الذين يسيرون فى طريق واحد ..

وقالت زينب وهى تجفف بقية دموعها :

- حتى لو كانت هذه هى طبيعة الحياة فهذه هى آخر ليلة أمثل فيها هذه المسرحية .. بل هذه هى آخر ليلة يجمعنى مع وجدى مسرح واحد ..

وقال محجوب فى هدوء

- لا تستطيعين ان تتخذى قرارك الآن وأنت متعبة منهكة .. انتظرى الى الصباح وابدئى التفكير من جديد ..

وقام من جانبها . . ودخل الى المطبخ وأعد لها كوبا من النعناع المغلى ، وفتح درج مكتبه وأخذ قرصا من الأقراص المنومة . . وعاد اليها قائلا :

ـ المهم الآن أن تنامى . .

وجلس بجانبها الى أن شربت النعناع وابتلعت القرص وهو يحاول أن يحدثها عن اخبار يومه وهو يعلم أنها لاتسمعه . . ثم اخذها تحت ذراعه ودخل بها غرفة النوم وارقدها على الفراش . . ورقد بجانبها ووجهها يملأ عينيه وابتسامته لاتزال بين شفتيه . .

انه منذ رأى زينب وهى جارته فى شارع المنيرة وهى هذه الشخصية ، ولم تتغير . . لعلها كانت ممثلة منذ ولدت . . ولعلها كانت تلقى الواواة . . وتصيح واء . . واء . . بلهجة تختلف عن واواة جميع الأطفال . . كأنها ولدت وهى تحفظ الواواة وتجيد القاءها وتمثيلها امام المتفرجين . . وقد كان اكبر منها بسبع سنوات . . ولكنه عاش وهو يحس دائما أنها معه رغم الاختلاف الواضح بين شخصيتيهما . . فهو هادىء دائما . . منزو . . متحفظ . . وهى دائما شعلة من نار . . لاتكف عن الحركة وعن الضحك وعن البكاء وعن الفرحة وعن المعارك . . وهى منذ وعت وهى تمثل . . كانت تقرأ القصص وأبيات الشعر وتمثلها أمامه عندما تكون فى زيارة أخته ، أو يكون فى زيارة أخيها . . ثم أصبحت تأتى اليه وحده لتمثل أمامه آخر ما حفظته . . وقد اشتركت فى فرقة التمثيل بكل مدرسة دخلتها ، وكانت تمثل فيها دور البطلة . . وكان يستطيع أحيانا أن يذهب الى حفلات مدارسها ليتفرج عليها وهى تمثل . . والواقع أنه لم يهو أبدا التمثيل ولم يفكر ابدا فى أن يمثل معها . . بل انه لم يكن ايضا من هواة الفرجة على المسرحيات أو على الافلام السينمائية . . ولكن كان التمثيل بالنسبة له هو فرصة لقاء مع زينب . . ولم يكن يحس بها أنها ممثلة وهى تمثل ، وكان كل ما يحس به أنها زينب . وكانت تعلم عنه انه ليس فنانا متخصصا فى الحكم

على تمثيلها ، ولكنها دائما كانت تحب أن تقوم بالتمثيل أمامه ربما لانها ايضا تعتبر التمثيل أمامه مجرد فرصة لقاء به . . وكان لزينب موهبة أخرى اشتهرت بها بين عائلات الحى وهى موهبة الرقص البلدى . . إنها رائعة وهى ترقص . . بل إنها كانت تبتكر حركات جديدة فى الرقص كأنها تتطور به الى فن أرقى . . ولكنه كان يحس بنوع من الخجل والحياء وهو يشاهدها ترقص . . خصوصا اذا رقصت أمام مجموعة من أهل الحى . . كان لايستطيع أن يتحرر من تحفظه الذى يعتبر أن الرقص عيب وتحريض بالنسبة للبنت خصوصا اذا رقصت أمام الناس . .

وكبرا . . والتحق بكلية الطب وأصبح طبيبا . . وبعد سنوات كانت قد التحقت بمعهد التمثيل وأصبحت ممثلة . . وتزوجا فى بساطة كأن زواجهما كان قدرا طبيعيا وعدا به منذ البداية وكتب عليهما . . وتزوجها وهو يعلم أنها ممثلة لها كل الحرية وكل الحقوق التى يتطلبها فنها . . وتزوجته وهى تعلم انه متزمت ومتحفظ وليس من هواة التمثيل وإن كان يعترف به كفن . . وكان الفارق الكبير بينهما انه لايحس بحاجته الى الناس . . الى الشهرة . . بل إنه لم يفتتح عيادة خاصة تجذب المرضى بل تفرغ للابحاث والدراسات الخاصة بعلم الطب . . وكان قد عين معيدا فى كلية الطب ومع السنوات اصبح مدرسا ثم استاذا . . ودون أن يتعمد اصبح مشهورا . . لا كطبيب معالج ولكن كأستاذ من علماء الطب ورغم شهرته فهو لايزال صاحب دخل محدود لانه لم يفتتح عيادة يمولها المرضى . . أما هى فإنها متفرغة لفن فى حاجة الى الناس . . الى الجمهور . . وكل ما فى عقلها هو السعى إلى إكتساب الجمهور وهى تمثل أمامه على المسرح . . وتحاول الا ينساها الجمهور ، فتسعى وراء الصحف لتكتب عنها وتنشر صورها . . وتثير مشاكل فنية تجعل الجمهور يدخل فى مناقشات حامية حولها . .

ورغم ذلك فقد استطاعا أن يوفقا بين الشخصيتين . . وقد ربط نفسه بمواعيد عمل زوجته . . تعود أن يقضى الليل يعمل فى أبحاثه الطبية الى أن

تعود زينب من المسرح . . ونظم مواعيد عمله بحيث لايخرج من البيت قبل العاشرة صباحا بعد ان تكون زوجته قد استيقظت . . وهى قد بذلت أكثر حتى تجمع بين الشخصيتين . . فهو لايستطيع أن يندمج فى الوسط الفنى والمسرحى ويشارك الفنانين والفنانات فى سهراتهم وحكاياتهم فامتنعت هى تلقائيا عن الاندماج فى هذا الوسط دون أن تفقد حب افراده واحترامهم . . وهو لايستطيع أن يتردد كثيرا على المسرح ليشاهدها كل ليلة وهى تمثل أو على الأقل ليصحبها الى البيت بعد انتهاء المسرحية . . وقد تعودت منه الا يأتى الى المسرح إلا ليلة واحدة فى كل مسرحية جديدة تمثلها . . وقد كانت تحس فى ليلة وجوده بين المشاهدين أن تمثل أحسن وتبذل مجهودا اكبر ، كأنها تمثل له وحده وتتمنى أن تبهره بتمثيلها . . كما تعودت أن تعود الى البيت فى الليل وحدها بعد أن اتفقت مع سائق تاكسى خاص بأن ينتظرها كل ليلة . . فهى لاتملك سيارة لانها لم تتعلم قيادة السيارات ولاتحب أن تتعلمها . . وكان زوجها الدكتور محجوب لايتحدث كثيرا عن فنها أو عن قيمة ماتقدمه من فن ، ولكنه كان يحب أن يستمع اليها مهما أطالت فى الحديث عن نفسها وعن فنها . . وكانت تصدر عنه أحيانا آراء غريبة . . فهو لايتمنى لها مثلا أن تعمل فى السينما وتمثل فى الأفلام . . فالسينما فى نظره ليست فنا ولكنها صناعة . . والاستديوهات مصانع وليست مسارح . . مصانع مقفولة حتى لايرى الجمهور مايجرى فيها كالشقق الخاصة المخصصة للقاء الرجال والنساء ولارقيب عليهم . . انه يغار عليها من العمل فى ستديو سينمائى ولايغار عليها من الظهور على المسرح . . وهى لأنها تعودت الاستسلام لآرائه تلقائيا رفضت العمل فى الأفلام السينمائية رغم العروض التى تعرض عليها بإلحاح . . وقد أحس أن زوجته أصبحت أشهر منه . . وربما أحس أن شهرتها وصلت الى حد انه اصبح يعرف بها . . الدكتور محجوب زوج الفنانة زينب . . وربما كان يمكن أن يتضايق ويثور احتفاظا بشخصيته الكاملة بعيدا عن شخصية زوجته . . ولكن أبدا . . انه فخور بها . . ويتباهى بأن ينسب اليها أو تنسب اليه . .

الى هذا الحد كان التوافق بين شخصيتهما . . وكان يعيش معها كأنه يعيش مسرحية رائعة تمثلها له وحده . . وكانت تعيش معه كأنه الواقع الوحيد الذى يريحها من متاعب الفن . . الواقع الذى تضحك فيه ، وتبكى وتطلق جنونها ، أو تعيش هدوءها بلا تمثيل . .

ورفع محجوب عينيه الى وجهها ومعه ابتسامه ذكرياته . . واطمأن الى انها نامت . . وانحنى يقبلها قبلة صامتة كأنه يمسها بشفتيه تبركا بها . . ثم أطفأ النور . .

* * *

وقامت زينب من النوم فى الصباح التالى وهى مفزوعة . . كأن الفكرة التى تشغل فكرها لم تنم معها بل ظلت متيقظة فى رأسها طوال تأثير الدواء المنوم الذى أعطاه لها زوجها . . إلى أن افزعتها الفكرة من نومها بعد أن انتهت سيطرة النوم عليها . . وتفتحت عيناها على نفس الثورة التى نامت عليها . . لن تستمر فى تمثيل هذه المسرحية . . بل لن تقف على المسرح ابدا بجانب هذا الفنان الحقير وجدى فرج . .

ولكنها وجدت أفكارها تتغير . . ووجدت احساسا فى العناد والتحدى يتغلب عليها . . انها فنانة فى منتهى عبقرية الفن . . وهى ممثلة وصلت الى قمة التمثيل فى المسرح العربى كله . . ولن يستطيع أحد مهما وصلت به الغيرة والسفالة ان يبعدها عن المسرح . . إن دقيقتين تظهر فيهما على المسرح يساويان ليلة كاملة يظهر فيها على المسرح أى ممثل أو ممثلة . . وستثبت ذلك لهذا الأستاذ وجدى فرج . .

ولم تحادث زوجها فى شىء . . ولم يحاول أن يحادثها ، وقدر أنها هائمة تبحث عن طريق . . وتركها إلى عمله . . وظلت هى فى البيت مستغرقة فى وضع خطة تعد كل خطوة ، وكل كلمة فيها كأنها تضع مسرحية جديدة . . وخرجت من البيت الى المسرح فى الساعة الواحدة بعد الظهر . . انه موعد اجتماع أفراد الفرقة لإجراء البروفات . .

ودخلت مباشرة إلى حجرة الأستاذ وجدى ووقفت أمامه وهى تبتسم فى مرح وتبالغ فى حيويتها كأنها امام استاذها الكبير وصديقها الحميم .. إنها تمثل أصعب دور فى حياتها . . دور النفاق والخداع . . وقالت فى بساطة :

- إنى أرى أن يوقف عرض هذه المسرحية . .

وقال الأستاذ وجدى فى دهشة :

- لماذا . . لم يمض على عرضها سوى ثلاثة اشهر . .

وقالت فورا :

- هذا يكفى . . حتى لو كانت ناجحة فيجب ألا نفرط فى استغلال هذا النجاح حتى يملها الناس .

وقال وجدى وهو يبتسم كأنه بدأ يقتنع :

- ولكن اى مسرحية ترين أن نعرضها بعدها . .

وقالت كأنها تردد حوارا حفظته :

- مسرحية المجنونة . . لقد مضت سنوات لم تعرض فيها . .

وقال وجدى فى دهشة :

- ولكن ليس لك دور رئيسى فى مسرحية المجنونة . . فلماذا ترشحينها . .

وقالت فى مرح مفتعل :

- لأنى أحبها . . إنها المسرحية التى بدأت بها الظهور معك على المسرح . . وقال وجدى وهو فى منتهى الفرحة والسعادة :

- أنا موافق . .

وكانت زينب قد اختارت ترشيح مسرحية المجنونة وهى واثقة ان وجدى سيرحب بها فورا . . فهى مسرحية تدور حول شخصية بطل واحد ، وهو الذى يقوم بتمثيل هذه الشخصية ، ويستطيع أن ينفرد بجمهور المتفرجين طوال الفصول الثلاثة دون ان يستطيع اى ممثل آخر أن يشاركه فى إجتذاب هذا الجمهور . . وكانت هذه المسرحية قد بدأت وهى لاتزال تبحث عن مكان لها بين الممثلين بعد تخرجها من معهد التمثيل . . ولم يكن سهلا أن تجد بابا مفتوحا لها . . إلى أن علمت أنهم يبحثون عن ممثلة تقوم فى هذه المسرحية بدور أمرأة عجوز تجاوزت السبعين من عمرها فتقدمت تسعى لأداء هذا الدور رغم انها صغيرة وكانت لاتزال فى الثانية والعشرين من عمرها . . ودهش الاستاذ وجدى من هذه الشابه التى تريد ان تمثل دور العجوز . . وقالت له . . جربونى فى احدى البروفات . . وقد عهد اليها وجدى بالدور فعلا ربما اشفاقا عليها . . فهى فنانة غلبانة تبحث عن دور لها على المسرح . . ولكنها اثبتت قدرتها فى هذا الدور رغم انه كان دورا قصيرا لايتعدى الأداء مدة دقيقتين أو ثلاث فى كل فصل من فصول المسرحية . . ولكنه كان الدور الذى دفعها خلال سنوات إلى أدوار أخرى أكبر وأهم حتى اصبحت تنفرد بالبطولة فى مسرحية « الطريق الى جهنم » . .

وقد تعمدت زينب أن تختار هذه المسرحية التى تمثل فيها هذا الدور القصير كأنها مصممة على تحدى وجدى ، وعلى أن تثبت له أنه حتى لو كان هو بطل المسرحية ، وكان ينفرد بتمثيلها من أولها الى آخرها . . فإنه يكفيها أن تظهر وهى تمثل امام الجمهور ولو دقيقة واحدة لتأخذ منه الجمهور كله معترفا بعبقريتها التى تتحدى بها عبقريته . .

وقد أوقفت فعلا مسرحية « الطريق الى جهنم » وبدأ الإعلان عن مسرحية « المجنونة » وقضت زينب اياما وهى تعد نفسها للدور الصغير . . دور المرأة العجوز . . وتضع فيه لهجات تلقيها برنات جديدة . . وتبتكر فى اختيار الملابس والمكياج الذى ستظهر به على المسرح .

وبدأ عرض المسرحية ..

وظهرت زينب تؤدى دورها الذى لم يستغرق فى الفصل الأول سوى دقيقتين فإذا بالجمهور يصفق لها تصفيقا صاخبا حتى أن التصفيق غطى على كلمات الحوار الذى دار بعد أن انتهت ..

وفى الفصل الثانى كان دورها يستغرق خمس دقائق والجمهور متعلق بها وبكل كلمة تنطقها ، ثم انهال التصفيق اكثر عما كان خلال الفصل الأول . . بل إن بعض المشاهدين كانو يقفون على أقدامهم وهم يصيحون . . برافو .. برافو . .

وربما أحس المتفرجون بنقص كبير فى الفصل الثالث لإن زينب ظهرت فيه وقد ماتت العجوز وجثتها ممدة على المسرح لاتتحرك ولاتتكلم . .

ولم يعلق لها وجدى بكلمة واحدة عن النجاح الذى حققته بدورها الصغير . . ولكنه إبتعد عنها كأنه يهرب منها مغتاظا رغم انه كان يلاقى هو الآخر عواصف من التصفيق . .

ولكنها فوجئت فى الليلة التالية بأحد موظفى الفرقة يظهر على المسرح قبل بداية المسرحية ويقول للجمهور . . رجاء عدم التصفيق خلال عرض الفصول حرصا على عدم إزعاج الممثلين اثناء القيام بأدوارهم . .

ورغم ذلك لم يستطع الجمهور أن يخفى إعجابه بها وهى تمثل دورها فى الفصل الثانى فانطلق يصفق . .

وقبل أن تبدأ البروفات فى اليوم التالى فوجئت بالأستاذ وجدى يستدعيها ويقول لها فورا ودون أن ينظر فى وجهها كأنه يهرب من مواجهتها :

ـ إنى إضطررت إلى إجراء تعديل فى المسرحية . . وقد ألغى دورك فى

الفصل الثانى . . آسف . . وجحظت عيناها وبدأت ترتعش وهى تحس أنها تهم بأن تهجم عليه وتقبض على عنقه وتخنقه . . ثم صاحت :

ـ لن أقوم بهذا الدور لو عدلت منه كلمه واحدة . . وابحث لنفسك عن ممثلة أخرى .. لن أظهر معك ابدا على مسرح واحد . . انك أنانى . . انك تغار منى . . انك تريد أن تقتلنى كممثلة قبل أن أقتلك . .

وجرت من أمامه . .

وعادت الى البيت . .

والقت بنفسها فوق الأريكة تبكى وهى تصرخ بالبكاء كأنها تشيع عزيزا عليها . .

وكلها ترتعش . .

* * *

وقالت زينب لزوجها الدكتور محجوب وهى تضغط على شفتيها بأسنانها فى منتهى التصميم :

ـ ليس هناك إلا طريق واحد حتى أخدم فنى وأخدم جمهورى وأخدم نفسى . . سأكون أنا صاحبة فرقة مسرحية تحمل اسمى . .

وقال محجوب وهو ينظر اليها فى دهشة :

ـ كيف تكونين صاحبة فرقة . . إنه مشروع يحتاج إلى رأس مال ضخم :

وقالت بمنتهى الثقة :

ـ أعرف من سيمول هذا المشروع . .

قال من خلال دهشته :

ـ من ؟ قالت فى بساطة :

ـ عبد المنعم مرزوق . . إنه مستعد ان يستجيب لكل ما أحتاج اليه وأطلبه . .

وسكت الدكتور محجوب كأنه أصيب بصدمة . . ثم قال فى صوت خفيض كأنه يصدر قرارا نهائيا :

ـ إنى غير موافق على أن تكون بينك وبين هذا الشخص أى معاملة . .

وقالت وهى تنظر اليه فى تصميم إلى حد التحدى :

ـ لماذا . . لقد اتصلت به بالتليفون وبدأنا نتحدث فى المشروع . .

وقال فى هدوء لايحول دون رعشة جفنيه :

ـ لقد سبق أن اتصلنا به نحن الاثنين . . ودعوناه الى البيت على اعتبار أنه من أنصار الفن . . فنك . . وكان يأتى وهو يحمل لنا هدايا كثيرة ويقضى الوقت وهو يتحدث عن مشروعات فنية يقوم بها لك . . ولكن بعد مدة قررنا نحن الاثنان مقاطعته ، أو لعله هو الذى سحب نفسه من أمامنا ومن صداقتنا . . لإنه يئس من الوصول إلى مايريد . . إنه لايريد الفن ، ولكنه يريد من تعجبه من الفنانات . . وهو لايهمه أن يتفرج على ممثله وهى تمثل على المسرح أو على الشاشة . . ولكن كل مايهمه أن يتفرج عليها وهى على فراش بين احضانه . .

وصاحت مقاطعة :

ـ لاتقل كلام الشوارع . . إن تاريخ المسرح كله مزدحم بحكايات

عن ممثلات شهيرات كن يعتمدن على رجال اغنياء فى تمويل مشروعاتهن ، فقيل عنهن إنهن كن يعطين اجسادهن لهؤلاء الرجال نظير التمويل . . ولكن مايقال عن تشنيعات وإتهامات ليس لها مايثبتها . . وكل مايدور فى خيالك يعتمد على طبيعة المرأة . . وانت تعلم ان ليس من طبيعتى أن استسلم لرجل مهما كنت فى حاجة اليه . . حتى لو حاول . . فلنتركه يحاول ونحن متأكدون انه لن يصل إلى شىء . . لإننا الاقوى . .

وقال بصوته الخفيض :

ـ ان هناك نوعا من اصحاب الملايين . . نوع معين من التجار او المقاولين أو من رجال الاعمال كما يسمون انفسهم . . نوع أصبح منتشرا فى مصر كما هو منتشر فى دول البترول . . هذا النوع مصاب بعقدة اذلال المستحيل لتحقيق متعة الزهو بنفسه . . فيجرى وراء النساء المشهورات خصوصا الفنانات ، وينزف عليهن من ملايينه حتى يأخذهن الى فراشه . . ثم يتفاخر فى جلساته الخاصة مع أصدقائه بأن يروى الحكاية . . وهذا الرجل الذى كنا نعرفه هو من هذا النوع من أصحاب الملايين . . ولعلك تذكرين انه روى لنا يوما حكاية عما كان بينه وبين الفنانة المرحومة عطيات . . ولن أطيق أن يبدأ فى رواية حكاية له مع زوجتى . . حتى لو كانت حكاية كاذبة . . إنى لن أسمح لك بمجرد لقائه . . بل أصمم على أن تقطعى أى تعامل معه حتى حديث التليفونات . .

وقالت فى حدة كأنها تعلن الثورة :

ـ ولكنى مصممة . . وسأحدد له موعد لقاء . . إن كل حياتى هى فنى . . وهى إنى ممثلة .. وإلا لم تعد لى حياة . .

وقال وهو لايزال هادئا :

ـ إذن . . سأتركك وحدك . .

وقالت صارخة كأنها أعلنت الثورة :

ـ ماذا تعنى . . هل تطلقنى ؟

وقال وهو يقوم واقفا :

ـ لا لن اطلقك إلا إذا طلبت انت الطلاق . . ولكنى سأترك لك البيت . . فقد كنت أعيش فيه مع ممثلة يحترمها ويبجلها الناس . . ولن أستطيع أن أعيش مع ممثلة تفقد احترام الناس . .

وقالت وهى تدق الأرض بقدمها :

ـ افعل ماشئت . . إنى مصممة . .

وبدأ الدكتور محجوب يجمع بعض ملابسه فى حقيبة صغيرة ، ثم خرج إلى بيت أمه . . وهى واقفة أمامه مصلوبة ينتفض كل ما فيها من الغيظ دون أن تنطق بكلمة . . ولم تسقط بعد أن خرج وتبكى كعادتها كلما واجهت مشكلة . . ولكنها ظلت واقفة مصلوبة كأنها تقاوم شيئا فى داخلها . . إلى أن استطاعت أن ترسم ابتسامة بين شفتيها . . ثم تحركت ناحية التليفون ورفعت السماعة وأدارت رقم المليونير عبد المنعم مرزوق . .

* * *

وكان قد مضى شهر دون أن يلتقيا . . بل دون أن يسأل احدهما عن الآخر ولو بالتليفون . . إلى أن فوجىء بها يوما تأتى اليه فى بيت أمه . . وهى تبدو ضعيفة منهارة . . واستقبلها قائلا فى دهشة المفاجأة :

ـ هل تريدين الطلاق . .

وقالت فى صوت كأنه صوت بكاء :

ـ لا . . جئت لأعود بك الى البيت . . بيتنا . .

قال فى فرحة :

ـ هل عدلت عن تصميمك . .

قالت وهى تخفض جفنيها حتى لايرى عينيها :

ـ كنت أعلم أنى لا أستطيع الحياة بعيدا عنك . . كل حياتى كانت معك . . ولكنى كنت أحاول أن أحقق المشروع أولا ثم أعود اليك به بعد أن تتأكد أنى لم أستسلم لما يمسنى ويمسك . . ولعل هذا الرجل الآخر كان يعلم مافى نيتى . . وكان أشطر منى . . فاشترط أن يصل هو إلى ما يريد قبل أن يحقق لى ما أريد . . لقد كنت على حق فى كل ما قلته عنه . . وقد عدت إليك دون أن أحقق أى مشروع . . وانا آسفة . .

واحتضنها بين ذراعيه وانهال عليها بقبلاته إلى أن أعطته شفتيها كأنها تستريح وتنام بين شفتيه . .

وجلسا إلى أن هدأت وقال لها كأنه يحيى فيها الأمل :

ـ إنك ستبقين ممثلة . . وستكونين أعظم ممثلة فى العالم كله . . ولكنك لن تعودى وتمثلى مع فرقة يملكها ويسيطر عليها ممثل او ممثلة اخرى . . إن الممثل عندما يكون فرقة فهو يكونها لنفسه وحده . . ويصمم على أن يكون الأسم الوحيد فيها . . والبطل الوحيد فى كل مسرحياته . . هكذا كان المرحوم يوسف وهبى مع فرقته . . وهكذا كانت فاطمة رشدى عندما كونت فرقتها . . وهكذا كان يمكن أن تكونى انت لو استطعت تكوين فرقة . . ولكن الفرق المسرحية التى يمكن أن تفسح لك مجال الفن حتى آخره هى الفرق التى يملكها مختصون ليسوا ممثلين ولاحتى مؤلفين . . انما يؤسسونها ويكونوا تجارا للفن ، والتاجر كل مايهمه هو تحقيق الربح . . وانت تحققين ربحا لكل من تعملين معه . . وفى مصر الآن كثير من الفرق التمثيلية يملكها ويسيطر عليها متعهدو الفن . . وقد حققت النجاح الصاخب لكثير من الممثلات والممثلين . . ولو كانت الفرقة التى تقدم

مسرحية « ريا وسكينة » يملكها ممثل يقوم بدور فى المسرحية . . لما استمرت ريا وسكينة . . ولكانت شادية وسهير البابلى قد هربتا من هذا الممثل الذى يستطيع ان يفرض نفسه عليهما كصاحب فرقة . . فحاولى ان تقدمى نفسك فى احدى هذه الفرق . .

وقالت وهى تحتضنه وتقبله بابتسامتها . . :

- لماذا لم تقل لى كل هذا الكلام قبل أن اعرض نفسى للفشل . .

وقال فى لهجة الطبيب الأستاذ فى علم الطب :

- اردتك ان تجربى الطريق الآخر حتى تقتنعى بهذا الطريق . .

قالت وهى تهم بالوقوف على قدميها :

- دعنا نعود الى بيتنا :

وقال وهو يشدها بجانبه :

- انك متعبة . . واخشى ان اتركك وحدك عندما أذهب الى عملى . . فلنبق مع امى اياما الى ان تستردى كل ما فقدتيه . .

وقالت من خلال ابتسامتها السعيدة :

- حاضر . .

الطريق الأقرب ..

كان حسام زهران أو حسام بيه كما يعرفه الناس من أعجب شخصيات المجتمع الراقى . . مجتمع أولاد الذوات ورجال الأعمال . . وكان أعجب مافيه أنه لم يتزوج حتى اليوم رغم أنه جاوز الخامسة والأربعين من عمره . . ولم يكن ينقصه شىء حتى يتزوج . . بل انه يعتبر حلما بالنسبة لكل النساء والبنات . . وكلهن يندفعن وراءه . . وكل منهن تضع له خطة لعلها تجره الى الزواج بها . . فهو وسيم يبلغ الحد الأقصى من الوسامة . . وهو رشيق طويل القامة الرفيعة . . ليس أطول ولا أرفع مما تتطلبه الرشاقة .. منتهى الرشاقة . . وهو أنيق يختار البدل والقمصان والكرفتات والأحذية كأنه جمع حوله كل مصممى اناقة الرجال ليعرضوا عليه أرقى واجمل ما وصلوا إليه . . ولم يكن وسيما ورشيقا وأنيقاً فحسب ولكنه كان فى منتهى الثراء . . ورث عن والده مصانع الألومنيوم بجانب مزارع للفاكهة وعمارات وفيلات . . ولكنه لم يكتف بالأرث بل تفرغ سنوات طويلة للعلم حتى حصل من أمريكا على دكتوراه فى علم إدارة الأعمال . . وإن كان لم يعود الناس على أن ينادونه بلقب دكتور . . إنه يكره أن يعرف بهذا اللقب ربما لانه يفضل ان يبدو بين الناس بسيطا عاديا دون أن يتباهى بوسامته او بثرائه أو بـ « شهادة الدكتوراه التى يحملها » . .

وهو لم يتزوج حتى اليوم . .

أخوه الأصغر تزوج . . وأخته الأكبر تزوجت . . وهو لم يتزوج . .

وقد احاطته ولحقت به كثير من القصص تحاول أن تبرر عدم زواجه . .

قيل عنه أنه ضحية قصة حب وحيدة . . فقد احب فتاة امريكية عندما كان يدرس هناك . . وقد خانته مع رجل آخر فكفر بكل بنات العالم . . وأصر على الا تدخل حياته أى أنثى . . وتوضع لهذه القصة نهايات أخرى . . فيقال أن الفتاة الأمريكية كانت ابنة عائلة كنيدى . . وأنها رفضت ان تتزوج من مصرى غريب رغم انها أحبته حرصا على عدم المساس بمركز أبيها الاجتماعى وهو مرشح لانتخابات الرئاسة . . وقيل أن حسام بيه هو الذى رفض أن يتزوجها لانه كبير عائلته فى مصر ولايريد أن يشوه تقاليد العائلة . . رغم أنه لم يحب بعدها ولايزال يسافر كل عام الى امريكا ليلتقط نظرة اليها ولو كانت من بعيد . .

وقيل أكثر من ذلك . . قيل عنه أنه عنين اصابه الله بعدم القدرة على التعامل مع الجنس الآخر . . إنه محروم جنسيا . . وإن كان المقربون اليه يعلمون انه ليس محروما . . وأن له مغامرات هادئة ولقاءات خفية مع نساء فى البيت الذى يملكه بين مزارع الفاكهة . . وان كان لم يصل اى لقاء الى قصة حب . . ولا الى مجرد فكرة زواج . .

وقيل عنه انه يحب امه الى درجة العبادة . . ودفعه الحب الى أن يكون لها وحدها ولايجمع بينها وبين زوجة تتجرأ وتحاول ان تضع نفسها فى بيته أو فى قلبه فى مستوى امه . . وهو يعيش مع أمه وحدها بعد أن مات أبوه وتزوج أخوه واخته واصبح لكل منهما بيت . . وهو يعيش معها كأنه ليس مجرد ابن بل كأنها كل حياته . . حتى أنه يربط يومه بيومها . . وساعته بساعتها . . فلا يخرج إلا فى الموعد الذى تعرفه أمه ويعود فى الساعة التى تنتظرها فيها امه . . ولا يتأخر عنها لحظة خوفا عليها من القلق . . وقد يلح عليه أصدقاؤه بالبقاء فى جلستهم فيقول ببساطة :

ـ لم أستأذن أمى . .

وقد يضطره عمله إلى التأخر عن موعد عودته إلى امه فلا يستسلم لعمله إلا بعد أن يحدثها فى التليفون ليبلغها او على الاصح ليستأذنها . .

وارتباطه بأمه كل هذا الارتباط هو ما جعل كل أيامه منظمة تنظيما دقيق . . كأنها دقات ساعة . . فكل من يعرفه يعرف متى سيراه ومتى سيبتعد . . ومتى سيكون متفرغا للعمل ومتى يكون فى راحة . . ومتى يكون جادا ومتى سيضحك . . حتى سهراته ومغامراته الهادئه منظمة على مواعيد ثابتة . . كأنه يحمل فى جيبه نتيجة مفهرسة لاتحدد له الأيام وتاريخ كل يوم من الشهر ومن السنة ، ولكنها تحدد له تحركاته فى كل ساعة من ساعات اليوم . . كان روتينيا ولكن هذا الروتين كان يشمل الساعات التى يعطى لنفسه فيها ساعات من الحرية تحقق له سعادته الشخصية وتعطيه كل احتياجاته . .

وحسام بيه يسألونه دائما :

ـ لماذا لاتتزوج ؟

وفى العادة يرد ضاحكا بنكته يطلقها على نفسه . . ولكنه عندما يرد جادا يقول :

ـ ان الزواج ليس مجرد نظام للجمع بين رجل وامرأة مفروض على كل الرجال والنساء . . إنه إحتياج . . وأنا لست فى احتياج إلى الزواج . .

* * *

ولكن إصرار حسام بيه على عدم الزواج لم يكن وحده أعجب مافيه . .

الأعجب هو هوايته الغريبة فى اختيار واعداد الاطعمة التى يأكلها . . وهى هواية يبدو بها أحيانا كأنه وضع حيلته كلها فى الطبق الذى يأكل منه . . وتجده وهو يأكل يمصمص شفتيه ويطلق كلمات الغزل فيما يتذوقه . . الله الله . . ياسلام ياسلام . . ايه الجمال ده كله . . ايه المتعة دى كلها . . ذوقوا ياناس واحمدوا الله وهو يمتعنا بخيراته . . ورغم انه

يبدوا كأنه ينسى نفسه وهو يأكل . . يبدو كمدمن متفرغا بادمانه كحشاش ينسى نفسه وهو يشد أنفاس الحشيش . . إلا أنه لايبدو شرها وهو يأكل . . ولايبالغ فى الكميات التى يلقى بها فى فمه بدليل احتفاظه برشاقة قوامه . . أو لعله يتميز كما يتميز كثيرون بالقدرة على هضم ما يأكله دون أن يترك منه دهونا تتعلق بخلايا الجسد وتسبب السمنة والانتفاخ . . أن كثيرين من أصحاب القامة الرشيقة يأكلون أضعاف أضعاف ما يأكله المنتفخون بالسمنة ورغم ذلك لايتأثر قوامهم . . وكأنهم لم يأكلوا شيئا . . ويقال عنهم ان أجسادهم تسرق الطعام وتخفيه فى عروقهم فلا يبدو عليهم أنهم أكلوا شيئا . . ولكن المعروف عن حسام بيه أنه يحرك أسنانه ببطء شديد وهو يمضغ ما يأكله . . كأنه يريد أن يحتفظ بمتعة مذاق الطعام داخل فمه أطول مدة ممكنة قبل أن يصل به الى معدته . . مرددا كلمات الغزل فيما يتذوقه . .

وقد عرفت أصناف المأكولات التى يدمنها حسام بيه . . وهى أكثر من صنف . . ولكن كل صنف له موسمه الذى يتفرغ له فيه ولايخونه أبدا مع اى صنف آخر . . انه مخلص لكل صنف اخلاص الحب . . وقد وضع لنفسه نظاما لتناول الطعام حتى يحمى نفسه من أن يضطر الى خيانة الصنف الذى يدمنه . . فهو يتناول افطارا سريعا خفيفا لايحوى أكثر من كوب شاى وقطعة من البسكويت مزودة بالجبن الأبيض . . وفى الساعة الثانية عشرة ظهرا وهو فى عمله يتناول كوبا آخر من الشاى مع قطعة أخرى من البسكويت والجبن الأبيض . . اما المائدة الذاخرة بالطعام الذى يدمنه فيجلس اليها فى الساعه السابعة مساء بعد أن يكون قد انتهى من عمله . . ويجلس اليها طويلا كأنه فى لقاء حب . . لذلك فهو يعتذر دائما عن كل الدعوات الى تناول العشاء . . وقد يقبل دعوة حتى يجتمع بالاصدقاء ولكنه لايأكل شيئا مما يقدم اليه . . فهو يكون قد انتهى من تناول اكلته . . أو قد يحمل معه الى الدعوة صنف الطعام الذى يدمنه ويشرك معه فيه الداعين والأصدقاء . . واذا أقام هو دعوة للعشاء فدعوته تحمل توقيتا عجيبا لموعد العشاء . . الساعة السابعة مساء . . وقد يتساهل أحيانا فيجعل العشاء فى

الساعة الثامنة . . واصدقاؤه يقبلون على دعواته مرحبين فرحين فان ما يقدمه لهم من الأصناف التى يدمنها يعتبر فعلا أشهى ما يمكن أن يتذوقوه . .

وليس معنى ذلك أن حسام بيه كان يدخل المطبخ بنفسه ليعد صنف الطعام الذى يدمنه . . لامجال أمامه لدخول المطبخ وعمله لايتيح له الساعات الطويلة التى يحتاج اليها إعداد الطعام . . ولكنه كان يدرس فن اعداد هذا الصنف من الطعام دراسة كاملة . . بكل تفاصيله وكل أنواعه . . ويلقن الطباخ مادرس . . وهو طباخ قديم فى خدمة العائلة وتعود على مزاج ومذاق حسام حتى أصبح يستطيع دائما أن يرضيه ويحقق مايريد . . وفى نفس الوقت كان حسام يلقن أمه ما درسه ويعتمد عليها فى الاشراف على الطباخ . . وأمه لم تعد تعيش الا لاسعاد حسام وارضائه . . وهى تعلم ان قمة ارضائه هى أن توفر له هذا الصنف من الطعام الذى يدمنه . .

وكان أشهر ماعرف من أصناف الطعام التى يدمنها حسام هو ادمانه لأكل طبق طيور السمان . . السمان المشوى مع الأرز الدمياطى . . والسمان المقلى . . وما يحيط بأكله السمان من مقدمات ومشهيات . . وموسم السمان ووصوله إلى سماء مصر ثم الى مائدة حسام يبدأ فى شهر سبتمبر ولايستمر الا ثلاثة شهور . . اى يهجر السمان سماء مصر فى أوائل ديسمبر . . ولكن حسام كان قد تعود أن يجمع من طيور السمان ويخزنها فى ثلاجات خاصة بحيث يتمتع بادمانه ستة شهور على الأقل من العام . .

وعندما يجد حسام بيه أنه أصبح محروما من السمان ولم يعد لديه منه شيئا تنتابه نوبة من الحسرة ويضيع فى حسرته كأن حبيبته قد هجرته . . ثم لايلبث أن يغرق فى ادمانه الثانى . ادمان أكله الجمبرى بكل اصنافه . . الجمبرى الصغير داخل طبق الارز بالكارى . . والجمبرى الكبير المشوى . . أو مخلوط « بانيه » . . أو جمبرى مسلوق على البخار لا على النار بالبصل . . ويعيش متمتعا بادمانه لكل أصناف الجمبرى . . وان كان

احيانا يجمع بين الجمبرى وسمك لانخوست فكلاهما ينتميان الى فصيلة واحدة من أهل البحر . .

ولكن كان يظهر عليه احيانا ادمان آخر يعتبر غريبا بالنسبة للطبقة الراقية . . فقد كان يدمن ايضا أكل الكوارع . . واستكمل كل الدراسات عن خصائص الكوارع التى يمكن ان يلقنها للطباخ حتى تصل اليه وهى فى منتهى روعتها ومتعة استطعامها . . الكوارع البتلو . . وهى أخف أنواع الكوارع من ناحية الطعم وأقدرها على اعداد أطباق الحساء الممتعة . . والكوارع الكندوز . . انها أصلح أنواع الكوارع التى تقدم مع أطباق الفتة بالأرز والخبز . . والكوارع الضانى التى تخلى من عظامها وتقدم على قمة أطباق ورق العنب المحشو بالارز وحبات اللحم المفروم . . كأنها تاج يفتح الشهية لأرقى درجات متعة المذاق . . وهو يعلم طبعا أن إعداد الكوارع يتطلب أن يبقى على النار ثلاث ساعات على الأقل حتى تلين وتتجاوب مع أسنان الأكيلة . . . ثم أن على الطباخ أن يتعمد ازالة البقع السوداء من فوق لحم الكوارع حتى تصبح بيضاء صافية فى لون الورد الأبيض الذى يبارك الحب . . حب الكوارع . .

وهكذا كان حسام بيه زهران . .

* * *

وجاءت أيام بدأ فيها من يعرفون حسام بيه يلاحظون تغييرا كبيرا فى روتين حياته . . ان الساعات المحددة بالنسبة لعمله . . وبالنسبة للقاء أصدقاء ومعارفه . . بدأت تختل . . بل عرف انه ليس دائما فى بيته فى الساعة السابعة مساء ليتناول وجبته الرئيسية ويلتقى بادمانه سواء لقاء السمان أو الجمبرى او الكوارع . .

الى أن بدأ الناس يتحدثون عنه وعن السيدة هدى المرجوشى . .

وهدى كانت دائما فى حياة حسام . . فالعائلتان متقاربتان . . وأم

هدى تعتبر دائما الصديقة الأولى لأمه وهما مرتبطتان احداهما بالأخرى كأنهما أختان . . حتى أن حسام منذ صغرة كان يعتبر أم هدى كأنها خالته ويناديها « طنط » . . كما كانت هدى تنادى أمه طنط » وتعتبرها أيضا كأنها خالتها . . وكانت هدى معروفة منذ صغرها بأنها ست بيت ممتازة وانها تهوى الطبخ . . وهو ماكان يغفر لها حتى اقبالها على التعليم ونفورها من المدارس ورسوبها المتتالى فى الامتحانات الدراسية . . وقد تزوجت هدى وهى فى العشرين من عمرها وهاجرت مع زوجها الى أمريكا حيث استقرا هناك . . ولكن ظل معروفا عن هدى احتفاظها بطابع البيت المصرى والمطبخ المصرى حتى فى أمريكا . . وكانت كل خطاباتها الى أمها تتعلق بشئون البيت والمطبخ . . وأمها ترسل اليها دائما كل مايجد من هذه الشئون . . وكانت هدى تأتى لزيارة أمها كل عامين لتقضى معها شهرا . . وأمها تذهب اليها ايضا لتقضى معها شهرا . . أى أن الرباط العائلى مستمر بما فيه الارتباط بعائلة حسام . . الى أن مر حوالى خمسة عشر عاما وتوفى زوج هدى فى حادث . . وعادت الى مصر دون أن تقرر الاستمرار فيها فقد كانت قد اكتسبت الجنسية الأمريكية واقامت حياة كاملة هناك . .

ودعاها حسام الى تناول وجبته معه . . وهى تعرف كل شىء عن حسام . . تعلم انه يتناول وجبته الرئيسية فى الساعة السابعة مساء . . وليس هذا غريبا . . ففى أمريكا ايضا يتناولون الوجبة الرئيسية فى مثل هذه الساعة بعد الانتهاء من العمل . . وتعلم ايضا ادمانه لانواع معينة من الطعام . . وقد وجدت نفسها تتعمد اجادة طهو هذه الانواع . . السمان والجمبرى والكوارع . . وأن بينها وبين حسام دائما ومنذ كان فى صباهما نوع من التقارب العاطفى المريح . . كأنهما أخوة . . أو كأنهما فى منتهى الصداقة . . وكان كل منهما يحس بمنتهى الراحة مع الأخر . . وتمتد جلساتهما بين ضحكات ومشادات وحكايات على طول ما يستطيع كل منهما مع الأخر . . وربما خطر على بال كل منهما أن يطور هذا التقارب الى حياة كاملة . . ولكن الحياة سارت بهما قبل أن يجمعهما أى تطور . . هدى

تزوجت من آخر رغم ما كانت تحلم به . . وقبل أن تخطر فكرة الزواج على بال حسام . . وهى لاتخطر على باله حتى اليوم . .

ورغم ان موسم السمان كان قد انتهى الا ان حسام قدم لها وجبة كاملة من الذى يختزنه . . وهو يتغزل فى كل قطعة يقطمها . . ويروى حكايات طويلة عن السمان كأنه يروى حكاية حبه . . وهدى تتحداه وتروى هى الاخرى حكايات عن أكلة السمان لتثبت له أنها تعرف عن حبيبته أكثر منه . .

وبعد أن طالت السهرة قالت له :

- غدا سأقدم أنا وجبة العشاء . . عندنا فى البيت . .

قال ضاحكا :

- ماذا تعدين لى ؟

قالت فى إصرار :

- لن اقول لك . .

قال كأنه يتباهى بحبه :

- طبعا ليس عندكم سمان . . لذلك سأحمل لك طبق سمان من عندى . .

وصرخت :

- لا . . أنت حر فيما تحبه وانا حرة فيما احبه ولن تستطيع أن تفرض على حبك . . ولو جئت معك باى مما يؤكل فلن أضعه أمامك على المائدة حتى لو أصررت على الا تأكل . .

واستسلم حسام وهو يضحك كأنه مقبل على مشادة جديدة بينه وبين هدى . .

وعندما ذهب اليها فى اليوم التالى فى الساعة السابعة وجلس على مائدتها وبدأ تقديم الطعام فوجىء بأنها تبدأ بتقديم ثمرة خرشوف كاملة مسلوقة . . إنه طبعا يعرف الخرشوف ولكن لم يخطر على باله أبدا أن يأكله . . وقال فى عجب :

- ما هذا . .

قالت وهى تشد ورقة من ثمرة الخرشوف وتشد طرفها بأسنانها :

- خرشوف . .

وكأنه أراد أن يبدأ بمسايرتها فمد أصابعه وشد ورقة خرشوف هو الآخر وشد فيها بأسنانه . . ثم أخذ برهة طويلة وهو يستطعم مذاقها . . ثم شد ورقة أخرى . . وأخرى . . الى أن أتى على كل الأوراق وأكل ايضا قلب الخرشوفة الذى يحمل الأوراق . . . وهو لايزال يستطعم المذاق كأنه يقوم بتحليل كيميائى داخل فمه . . وهدى تتبعه بعينيها دون ان تعلق بشىء وان كانت الابتسامة لاتفارق شفتيها . .

ثم جاء الى المائدة الطبق الثانى . . وهو أيضا خرشوف محشو باللحم المفروم « المعصج » ومعه حبات من الصنوبر ومحاط بالصلصة البيضاء والجزر . . وأخذ حسام مدة أطول فى تذوق هذا الطبق ودراسته . .

وجاء الطبق الثالث . . انه أيضا « دقية » من الخرشوف المسلوق بالزيت وسط حبات من الفول الحراتى و« الشبت » وقطع الليمون . . وهو طبق يقدم باردا . . كأنه طبق الحلو الذى يقدم بعد العشاء . . واستغرق حسام مدة طويلة فى تذوق هذا الطبق . . ثم قال بعد أن انتهى منه

ـ ساتناول عشائى غدا معك ايضا . .

وقالت هدى فى فرح :

ـ ماذا تريد أن أعد لك . .

وقال فورا :

ـ خرشوف طبعا . . انى مازلت مترددا فى الحكم على مذاقة وفى تأثير هذا المذاق على . .

وقضى السهرة معها . . وهو تمر به فترات يصمت فيها ويسرح بخياله كأنه يستعيد ذكرى مذاق الخرشوف حتى يتخذ قراراً بالنسبة له . .

وتناول الخرشوف فى اليوم التالى :

ووجد نفسه يعترف بأنه وقع فى إدمان جديد . . إدمان الخرشوف . . وقال لهدى :

ـ أريد ان أعرف كل التفاصيل عن اعداد الخرشوف وطهوه حتى القنها لطباخى ويقدمه لى كل يوم فقد وقعت فى هواه . .

وقالت هدى ضاحكة :

ـ لن يستطيع أن يعد لك المذاق الذى أعده أنا لك . .

وقال محتجا :

ـ لماذا . . هل تلجئين الى السحر وأنت فى المطبخ ؟

وقالت كأنها تشفق عليه :

ـ لا . . ولكن الحكمة الشعبية تقول « ان الطبخ بالنفس » . . أى أن طهو الطعام يتم بأنفاس الطاهى . . ويختلف مذاق الصنف الواحد مما يطهى باختلاف انفاس الطهاة . . ان مجرد اختلاف حركات أصابع الطاهى يختلف معها مذاق الطعام . . ومايمكن أن يعده لك طاهيك من الخرشوف لايمكن ان يكون فى مذاق ماأعده لك . .

وصاح كأنه يدافع عن نفسه :

ـ ان طباخى الأسطى محمود هو عبقرى الطهاة فى مصر كلها . . وقد أوقعنى فى حب السمان والجمبرى والكوارع فلماذا لايحمى حبى الجديد للخرشوف . .

وقال فى هدوء المشفق :

ـ إن الاسطى محمود كان أول من أعد وقدم لك . . وأنت تحب سمان الاسطى محمود وجمبرى الاسطى محمود وكوارع الأسطى محمود . . ولكنك احببت خرشوف هدى . .

ورغم ذلك أصدر حسام أوامره الى الأسطى محمود بأن يعد له أطباق الخرشوف بعد أن ضغط على هدى حتى كشفت له عن كل اسرار الاعداد . . وهو نفسه قام بدراسات خاصة حول الخرشوف . . ووجد الأسطى محمود نفسه على علم تام بالخرشوف . . انه طعام منتشر معروف واعداده سهل . .

ولكنه عندما أكل خرشوف الاسطى محمود وجد فرقا كبيرا فى مذاقه عن خرشوف هدى . . رغم أن طبق الخرشوف نفسه لاينقصه شىء فى اعداده يستطيع ان يلوم عليه الأسطى محمود . . ربما كانت الحكمة الشعبية صحيحة . . « ان طهو الطعام يستمد مذاقه من انفاس الطاهى » . .

وأصبح يقضى أيامه بين السمان أو الجمبرى أو الكوارع ثم يلح عليه ادمانه بحاجته الى الخرشوف فيهرع الى هدى ويتناول عندها أطباق الخرشوف . .

ومرت اسابيع الى أن أصبحت هدى مضطرة الى العودة الى أمريكا . .

وبدأ حسام يحاول أن يشبع ادمانه بخرشوف الأسطى محمود . . ولكنه مستحيل . . وحاول أن يتخلص نهائيا من ادمان الخرشوف . . ولكن مستحيل أيضا . .

وبدأت الفكرة تخطر على باله لأول مرة . . لماذا لايتزوج هدى . . وحاول اقناع نفسه بأنه لايتزوجها من أجل الخرشوف . . إنها عاشت معه فى كل حياته . . وهى المرأة الوحيدة الذى يجمعه بها كل هذا التقارب . . ثم انها الوحيدة التى تتمنى أمه وتفرح بأن تعيش معها . .

وسافر الى أمريكا . . وعرض على هدى الزواج . . وفرحت هدى فرحة صارخة . . أنها امنية عمرها منذ كانت صبية . . وستصفى كل مالها فى أمريكا وتعود الى مصر وتعيش مع حسام . . وقال وهو يحتضنها كأنه يعترف لها :

ـ لقد كنت متزوجا من ثلاثة . . السمان والجمبرى والكوارع . . وسأتزوج الرابعة . . سأتزوج الخرشوف . .

وقالت ضاحكة :

ـ وسأحتفظ لك بزوجاتك الأربع . . وان كانت الزوجة الرابعة ستكون دائما الأحب . .

ولايدرى أحد ما اذا كانت هدى قد اغرت حسام بطبق الخرشوف حتى يتزوجها . . أم أن كل ما حدث كان صدفة . . على كل حال فان هدى مقتنعة دائما بالحكمة الشعبية التى تقول « إن أقرب طريق إلى إقناع عقل الرجل وقلبه هو الطريق الى معدته . . الطريق إلى بطنه » . .

وكأنه مات..

إنه منذ تزوج واصبح له بيت وهو يعتبر نفسه غير مسئول عن إدارة شئون هذا البيت . . إنه متفرغ كل التفرغ لشئون عمله . . وما يدره عليه عمله من كسب مالى يضعه كله فى يد زوجته بعد أن يحتفظ لنفسه بما يقدر انه يكفى تكاليف حياته خارج البيت . . . فزوجته هى المسئولة عن إدارة شئون البيت بما فيها شئون الأولاد . . ورغم أن دخله الذى يدره عمله قد ارتفع كثيرا ، واصبح يعتبر من الأغنياء . . إلا انه لم يكن يهتم بمعرفة كم أصبح يكسب . . وكم يدخر فى البنك . . فكل ذلك من اختصاص زوجته . . وهى حرة فى تصرفاتها . . وليس معنى ذلك انها تخفى عنه شيئا . . إنها تحدثه دائما فى جلستها التى تعودوا عليها قبل تناول طعام العشاء عن كل تصرفاتها خلال اليوم . . وعن كل قرش صرفته أو ادخرته أو دفعته لمصلحة الضرائب . . فهى المسئولة أيضا عن محاسبة مصلحة الضرائب . . ولكنه لايهتم بمراجعة ماتحدثه عنه أو مجرد فهمه . . فهو مطمئن اليها كل الاطمئنان . . ويعتبر هذا الاطمئنان هو الذى يوفر له تفرغه لعمله ونجاحه فيه . .

لقد كان يعيش فى البيت كمتفرج . . وزوجته قادرة دائما على أن تسعده بما يتفرج عليه . . حتى أصناف الطعام لم يكن يختار منها شيئا أو يوصى بشىء . . انه يحس بأنه يتفرج على كل ما يقدم اليه ثم يسعد بتذوقه . . وقد كانت زوجته كأنها تعيش فى بطنه وتعرف أسرارها فلا تقدم اليه الا ما يثير شهيته ويحقق متعته بما يأكل . .

الى هذا الحد كان سعيدا باستسلامه لزوجته . . انها ست بيت ممتازة وزوجة ممتازة وأم ممتازة . .

ولكنه كان يهب عليه إحساس بمسئوليته عن البيت والعائلة فى لحظات طارئة عندما تشكو إليه زوجته . . وكان يفاجأ بأى شكوى كأن ليس من حقها أن تشكو له . . فهى المسئولة وهو مجرد متفرج . . ولكن زوجته كانت تفيض بشكواها وتستمر فى ترديدها كأنها تصرخ وتبكى وتستغيث به حتى يخرج من طبيعته كمتفرج ويحس بمسئوليته . . ولكنه احساس لايخرج عن تهدئة زوجته بتدليلها والتحايل عليها حتى تهدأ . .

وكانت زوجته لاتعلن شكواها أبدا إلا من الشغالات اللاتى يخدمن فى البيت . . وعلى الأخص المتخصصات فى خدمة الأبناء . . إنها تكاد تجن . . فلم يحدث ان استقرت شغالة فى البيت . . من تعجبها وتريحها تهرب من البيت لتعمل خارج مصر أو فى بيت آخر يدفع لها أكثر . . ومن لاتعجبها ولاتريحها تطردها . . ولم يستقر فى البيت الا شغال نوبى . . عثمان . . وقد مضى عليه فى خدمتهم اكثر من عشر سنوات حتى أصبح كأنه فرد من أفراد العائلة — وربما كان سر بقائه أنه يعتبر فى تصرفاته وتحركاته كأنه شخصية شاذة . . وربما كان من شذوذه أنه لم يتزوج رغم انه وصل الى الأربعين من عمره . . ولايفكر فى الزواج . . ويعيش كأن كل حياته فى هذا البيت الذى يخدم فيه . . والزوجة لاتعانى من شذوذ عثمان فهى صاحبة موهبة فى التعامل مع الشاذين . . انه هو نفسه . . زوجها . . يعتبر شاذا بين الأزواج . . ولكن خدمة البيت لايمكن أن تكتفى بعثمان وحده . . انه بيت كبير وقد أصبح الأبناء ثلاثة . . والبيت فى حاجة قصوى الى شغالة أو شغالتين تخدمان بجانب عثمان . . وطوال هذه السنوات لم تستقر فى البيت أى شغالة . .

إلى ان عاد يوما إلى البيت وفتح الباب بمفتاحه الخاص واذا به يفاجأ أمامه بفتاة غريبة . . ووقف يحلق فى وجهها متعجبا . . لايمكن ان تكون هذه الفتاة من مصر . . فعيناها ضيقتان مشدودتان . . وانفها افطس . . وشفتاها تغطيان فما واسعا جداً . . وقامتها قصيرة . . ولون بشرتها اسمر مشوب بالاصفرار . . وهى واقفة أمامة صامته لايتحرك فيها شىء ولاحتى

ابتسامة كأنها قطعة من الحجر . . وهرب من امامها دون أن ينطق بكلمة وجرى الى زوجته يسألها فى لهفة :

– من هذه ؟

وقالت زوجته فى فرحة كأنها تزغرد :

– إنها الخادمة الجديدة . . إنها من الفلبين . .

ثم انطلقت الزوجة ترى فى تباه كيف استطاعت أن تحصل على خادمة من الفلبين . . فإن ابن عم صديقتها كوثر يعمل هناك وقد اصبح من بين أعماله تصدير الفتيات الفلبينيات الى مصر ليعملن خادمات لدى العائلات المقتدرة . . وقد استطاعت أن تتفق معه على تصدير هذه الخادمة . . ومرتبها مائة وخمسون دولارا فى الشهر . . تضعها لها فى البنك . . بجانب ثمن تذكرة الطائرة التى حملتها الى القاهرة . . وتعهدها بأن تدفع لها ثمن تذكرة العودة الى بلادها سواء فى أجازتها او إذا قررت ان تهجر العمل فى مصر . . وبعد ذلك فكل نفقات حياتها الخاصة على حساب العائلة . .

ولم يحاول ان يناقش زوجته فى التفاصيل . . كيف استطاعت أن تتصل بقريب صديقتها الذى يقيم فى الفلبين . . وكيف تستطيع أن تدبر تكاليف هذه الخادمة من ميزانية العائلة . . وكيف تحصل على الدولارات التى تدفعها لها . . انه من عادته الا يهتم بالتفاصيل المتعلقة بشئون البيت . . ولكنه سأل زوجته :

– كيف تتحدثين اليها . . بأى لغة ؟

وقالت فى فرحة :

– بالانجليزية . . إنها فتاة مثقفة متعلمة . . بل قالت لى أنها متخرجة من الجامعة فى بلادها . . وأعتقد انها من عائلة محترمة . . فالعمل فى خدمة

البيوت لايشين أى فتاة فلبينية . . وهن أرقى من بنات تايلاند اللاتى اصبح بعضهن يعملن أيضا فى مصر . . انهن أرقى وأنظف . . فرق كبير بين بنات الفلبين وبنات تايلاند . . ولذلك فأجورهن وتكاليفهن أعلى . .

وهو يستمع الى كلام زوجته الكثير وهو ساهم . . ويسخر بينه وبين نفسه من أحوال الدنيا . . ان خدم البيوت من أبناء وبنات مصر يهاجرون للعمل فى الخارج . . وكان الحل الوحيد هو ان تستورد البيوت المصرية خدما أجانب من الخارج حتى تغطى النقص الذى تعانيه . . ولعلنا لو كنا ندفع أجر الخدم المصريين بالدولارات ، كما ندفع للخدم الأجانب لما هاجروا ولما استوردنا . .

وقد أصبحت متعته وهو فى البيت أن يجلس متفرجا على هذه الخادمة الفلبينية . . واسمها فيوليتا . . ويحس بها كأنها قطعة انتيكا اثرية اشتراها من الخارج ليزينوا بها البيت . . وهى فعلا خادمة رائعة تؤدى كل مسئولياتها أداء كاملا لاتحتاج فيه الى أى ملاحظة . . وكانت تقوم الى العمل فى الساعة السادسة صباحا وتظل تعمل حتى التاسعة مساء . . وفى الساعات التى تخلو فيها من العمل تجلس وتكتب خطابات لأهلها . . خطابات طويلة وكثيرة . . وقد أطل بعينيه على بعض هذه الخطابات وهى تكتبها . . فوجدها تكتب باللغة الانجليزية . . وبخط واضح مهذب يؤكد انها فعلا مثقفة . . ولكنها دائما صامتة . . لاتبدأ أبدا بحديث . . وتتلقى ما يوجه اليها من حديث وتجيب بهزات رأسها . . وهو لم يتعود ان يتحدث الى أحد من الشغالين فى البيت . . واذا أراد شيئا فهو يطلبه أولا من زوجته . . حتى لو كان يريد مجرد كوب من الماء يشربه . . وزوجته هى التى تأمر الخدم بمطالبه . . ولكنه كانت تمر عليه لحظات يضطر فيها الى توجيه كلامه الى الخادم أو الخادمة . . وكان لايستطيع أن يوجه كلامه الى فيوليتا الا باللغة الانجليزية . . وقال لزوجته ضاحكا :

– إنى أحس كأنى أصبحت أقيم فى فندق . . فانى لم اتعود ان

أحادث الخدم باللغة الانجليزية فى بيتى ، ولكنى احادثهم بها فى فنادق أوربا . .

والمهم . . ماذا حدث لعثمان عندما وجد بجانبه هذه الفتاة الفلبينية تشاركه فى خدمة العائلة . . وقد استقبلها ساخطاً . . يرفض التعامل معها . . وقدرت الزوجة أن عثمان ربما علم بقيمة المرتب الذى تدفعه لفيوليتا . . وهو أكثر من ضعف مرتبه . . والأسرار داخل البيوت لاتبقى أسرار مدة طويلة . . لذلك أسرعت الزوجة ودون أن يطلب منها عثمان شيئا ورفعت مرتبه عشرة جنيهات . . ولكنه لايزال اقل من مرتب فيوليتا . . ولكنه ليس الفارق فى المرتب فحسب . . فربما ضاق عثمان بان فيوليتا لاتعيش كأنها شغالة وفى مستوى مجتمع الشغالات الذى تعود عليه . . فهى تبدو دائما وهى تقوم بعملها فى ثياب أنيقة مودرن جاءت بها معها من بلادها . . إنها تبدو من بنات العائلة لا خادمة من خادماتها رغم اختلافها فى الشكل . . ثم ان العائلة خصصت لها فراشا كاملا مريحا ودولابا تحتفظ فيه بثيابها ولوازمها فى غرفة الأبناء . . كأنها هى ايضا من الابناء . . فى حين ان عثمان ليس له الا غرفة مهملة فوق السطوح . .

وأكثر من ذلك . . فقد كانت الزوجة حريصة على أن تظل فيوليتا سجينة داخل البيت . . فلا تصحبها معها عندما تخرج . . ولاتتركها تخرج مع الأولاد فى أيام الأجازات . . ولا أن تذهب لتعود بهم من المدرسة . . فقد كانت الزوجة تخشى أن تحرض عائلة أخرى فيوليتا لتأخذها لخدمتها . . بعد ان انتشرت بين العائلات عمليات « لطش » الخادمات الاجنبيات كما « تلطش » الخادمات المصريات . . ولذلك حرصت على ان تبقيها سجينة داخل البيت . . ولكن الاتفاق مع فيوليتا كان يفرض ان تمنح اجازة يوما من كل اسبوع . . وقد اختارت أن يكون يوم الآحد . . وحجتها انها تعودت أن تذهب الى الكنيسة وتصلى فى هذا اليوم . . ووضعت الزوجة تخطيطا جديدا يوفر لفيوليتا حقها وفى الوقت نفسه يضمن عدم « لطشها » منها وسحبها الى خدمة عائلة أخرى . . فسمحت لها بالاتصال باثنتين او ثلاثة من

الفتيات الفلبينيات اللاتى جئن للعمل فى مصر عن طريق ابن عم صديقتها كوثر . . واتفقت معها على ان تذهب معهن الى الصلاة فى الكنيسة كل يوم أحد ثم تدعوهن لتناول الغداء وقضاء اليوم داخل البيت . . كأنها سمحت لها باقامة حفل كل أسبوع تدعو اليه صديقاتها . . وان كانت الزوجة قد بدأت بعد ذلك ينتابها الهلع فقد سمعت ان فتاة تايلاندية تعمل لدى احدى العائلات المصرية وقفت أمام ربة العائلة وقالت لها ببساطة إنها تريد ان تتعرف الى صديق شاب . . فهى لاتستطيع أن تعيش شبابها وهى محرومة . . ومن يدرى . . ربما طلبت فيوليتا ايضا أن يكون لها صديق شاب . . أو ربما فوجئت بها وهى تدخل البيت فى يوم الأحد ومعها هذا الشاب . . وتحاول الزوجة أن تطفىء هذا الهلع . . لا . . ان فيوليتا فتاة مهذبة محترمة . . ثم انها من الفلبين وليست من تايلاند كالفتاة التى سمعت عنها . . وقد سألتها يوما وهى تفتعل التضاحك معها :

ـ الا تفكرين فى الزواج يافيوليتا ؟

وأجابت فيوليتا فى هدوء :

ـ إن ما أدخره من مرتبى حتى اليوم لايكفى للزواج . . وعندما يكفى سأتزوج فى بلدى . .

انها فتاة مهذبة جادة . .

وربما كانت جديتها وتفانيها فى خدمة البيت والعائلة مما دفع عثمان الى ان يلين فى معاملتها . . والى اقتراب التفاهم بينهما . . واصبحا يشتركان فى اعمال البيت بروح صافية وتآلف كامل . . كأن عثمان قد نسى كل ما تأخذه من العائلة أكثر . . بل انه بدأ ينطق بعض الكلمات الانجليزية أخذها من فيوليتا . . وهى أيضا بدأت تتكلم بعض الكلمات العربية أخذتها من عثمان . .

* * *

ومر عام وست البيت فخورة بالقمة التى وصل بيتها اليها . . قمة الاستقرار والنظام والراحة . . لم يعد اى شىء يتعبها فى ادارة البيت . . ولاشك ان فيوليتا كانت صاحبة الفضل فى كل ما وصل البيت اليه . . ولكنها فوجئت ذات صباح بخبر منشور فى كل الصحف . . وصرخت كأنها نكبت فى عزيز لديها . . لقد قررت الحكومة منع استخدام بنات جنوب شرق آسيا كعاملات أو خادمات فى البيوت أو الاقامة فى مصر . . أى بنات الفلبين وتايلاند وماحولهما . . وسيقبض البوليس على كل من يجده من هؤلاء البنات ويرحلهن الى بلادهن . .

وقد ابلغت الخبر الى فيوليتا وقررت ان تسجنها داخل البيت حتى لايراها البوليس فى الشارع . . بل تكاد تحبسها داخل دولاب حتى لايراها احد من المترددين على البيت . . ولكنها تعلم ان كل هذا لايكفى . . وتكاد تجن . . ما هذا الظلم . . كيف تسمح الحكومة للبنات المصريات بالهجرة للعمل فى الخارج ولاتسمح للبنات الاجنبيات بأن يكن بديلات عنهن ويعملن فى الداخل . . وهى منذ البداية تعمدت أن تستكمل كل الاجراءات الرسمية ليكون لفيوليتا حق الاقامة والعمل فى مصر . . ولكن ماذا تفعل الآن . . وحيرتها تمزقها وتكاد تكذب على الناس وتقول لهم انها طردت خادمتها الفلبينية . . كأنها تخدع البوليس والمخابرات . . وتخدع الدولة . .

ومرت أيام طويلة قبل أن تقول لها صديقتها كوثر التى تستخدم هى الأخرى فتاة فلبينية . . :

ـ الحل الوحيد الذى وصلت اليه بعد ان استشرت وتحريت هو أن ازوج خادمتى بأى رجل مصرى . . انها بذلك يكون لها حق الاقامة والعمل فى مصر طول عمرها . . لماذا لم يخطر على بالها هذا الحل . . انها تعرف ان كل الشبان والبنات الذين يهاجرون الى الخارج يكون اول ما يسعون اليه هو الزواج من اهل البلد حتى يكون لهم حق الاقامة فيه . . ومحمود ابن الشيخ راجى هاجر الى امريكا وتزوج فتاة امريكية ليكتسب حق الاقامة . . وانجب

منها ولدين . . ولكنه بعد عشر سنوات ترك زوجته وأولاده لأنه قرر ان يعود الى مصر . .

ستزوج فيوليتا فى مصر . .

ولكن تزوجها من ؟

وأقبلت على زوجها وهى لاتكف عن أن تروى له كل تفاصيل المشكلة يوما بيوم . . رغم انها تعلم انه لن يبذل اى جهد معها سوى تدليلها للتخفيف عن عذابها . . وسألته . . الا يعرف أى رجل يمكن ان يتزوج فيوليتا . . انه ليس زواجا بالمعنى المفهوم . . انه مجرد اجراء رسمى كاستخراج ترخيص لها بالاقامة والعمل . . وبدلا من ان تدفع الرسوم للموظف المختص تتزوجه . . وقد يقبل هذا الزواج اى رجل غلبان فانها مستعدة ان تدفع له ثمنا لقبول هذا الزواج . . حتى لوا ضطرت ان تدفع له مرتبا شهريا باعتباره زوجا مهملا ليس له حقوق الزوج . . وقال زوجها ضاحكا :

ـ الأسهل أن اتزوجها أنا . . ونحل المشكلة . .

وصرخت فى وجهه :

ـ قطع لسانك . .

ثم لمعت عيناها ببريق ذكائها . . انها تعرف من يتزوج فيوليتا . . انه عثمان . . ولن يثير اى شكوك . . فكلاهما يعملان ويقيمان فى بيت واحد . . وسواء تزوجا أو لم يتزوجا فلن يعلم احد . . انها بهذا الزواج تحمى نفسها من اتهامها بالتحايل على الحكومة . .

ونادت فيوليتا ودخلت معها فى حديث طويل . . انها طبعا لاتقبل عثمان كزوج . . انها مثقفة ولها طموحها وعثمان يعتبر جاهلا ولايحقق شيئا

من هذا الطموح . . ولكن ما سيتم ليس زواجا ولايربطها بشىء . . ستبقى كما هى . . تنام وحدها فى غرفتها . . . ولا تلتقى بعثمان الا وهما يعملان فى البيت . . وتستطيع فى أى وقت ان تترك البيت ومصر كلها وتعود الى بلادها . . وورقة الزواج التى تكتب فى مصر لاتساوى شيئا فى الفلبين . .

واستغرقت فيوليتا فى التفكير كأنها تراجع جداول الحساب . . ثم هزت رأسها موافقة . . انها موافقة على الزواج من عثمان . . فقط لتبقى فى مصر . . وتتحرر من اختبائها داخل البيت وتستطيع أن تخرج الى الشارع دون أن تخاف القبض عليها . .

بقى ان تقنع عثمان بهذا الزواج . .

ولكن كيف تقنعه ؟

انه انسان شاذ فى كل تصرفاته وتحركاته وحتى فيما يقوله . . وقد يدفعه شذوذه الى قبول هذا الزواج ببساطة . . ولكن . . من يدرى . . إن الشواذ لايدرى أحد ما يقدمون عليه وما يقبلونه أو يرفضونه . .

وانفردت بنفسها ساعات تعد كل كلمة ستقولها لعثمان . . ثم نادته . . ووقف امامها مستسلما . . وبدأت بأن ذكرته بقرار الحكومة بابعاد كل العاملات فى البيوت الأجنبيات ومن بينهم فيوليتا . . وهو يعلم انها خادمة شاطرة ومهذبة ولم يحدث منها ما يشينها . . وقد أصبح البيت فى اشد الحاجة اليها . . والوسيلة الوحيدة لتبقى فيوليتا معهم هى أن يتزوجها . .

وقال عثمان كأنه لايصدق اذنيه :

ـ من يتزوجها ؟

وقالت وهى تبتسم له ابتسامة واسعة :

ـ انت ياعثمان . . وانت تعرفها و . .

وقاطعها فى حدة :

ـ عيب ياست هانم . . إنى لم اتزوج حتى اليوم ، ولا افكر فى الزواج . . وحتى اذا نويت الزواج ، فلن اتزوج بنت غريبة تتكلم الأفرنجية . . ومسيحية . . ستكون فضيحة تشمت فىّ كل اهل البلد . . اننا ياست هانم لانتزوج الا من بنات بلدنا . .

ورفعت صوتها على صوته وصاحت :

ـ انه ليس زواجا ياعثمان . . انه مجرد ورقة تترك فيوليتا تعيش معنا . . وسيبقى كل منكما فى حاله . . وهذه الورقة ستبقى سرا وسأحتفظ بها معى . . حتى زوجى وأولادى لن يعرفوا عنها شيئا . .

وقال عثمان وقد اختلج صوته كأنه غاضب أو قرفان :

ـ ليس هناك مايبقى سرا ياست هانم . . خصوصا عن عم جمعه البواب . . وسيعرف كل ماقى العمارة بان فيوليتا أصبحت منسوبة الى . . والله اعلم ماذا سيقولون . . وعن اذنك ياست هانم انى ساترك الشغل عندكم . . حتى تجدى شخصا آخر يتزوج هذه البنت . .

وادار ظهره خارجا . . فقامت منظورة وجرت وراءة وامسكت به وهى تصيح :

ـ لا ياعثمان لاتترك البيت . . ولن ازوجك فيوليتا . . لن تتزوج ابدا . .

واحنى عثمان رأسه وهو يتنهد كأنه يضمد جراحه وقال :

ـ حاضر ياست هانم . . انت الخير والبركة . .

وعادت والحيرة تسيطر عليها وهى تبحث عن الوسيلة التى تحفظ لها وجود فيوليتا . .

* * *

ومضت أيام وست البيت مستسلمة لليأس . . وليحدث مايحدث . . سواء بقيت فيوليتا أو لم تبق فانها تستطيع ان تعيش والبيت سليم . . ولكنها بدأت تلاحظ انفراد فيوليتا بالجلوس مع عثمان ساعات طويلة فى الفترات التى لايعملان فيها . . والحديث بينهما معظمه بالاشارات وتنطلق خلاله الكلمات الانجليزيه التى تعلمها عثمان والكلمات العربية التى تعلمتها فيوليتا . .

ومضى حوالى اسبوعين عندما فوجئت بعثمان يقف امامها ويبدأها قائلا فى صوت خفيض يتعثر بين انفاسه وجفنيه مرتخيتين فوق عينيه كأنه لايستطيع أن ينظر اليها :

– لك حق ياست هانم . . إننا فى حاجة الى فيوليتا لخدمة البيت . . وأنا لم أعد استطيع أن أعمل وحدى . . حتى لو اضطررت الى أن أتزوجها . .

وشهقت ست البيت من دهشة المفاجأة وقالت فى فرحة كأنها تزغرد :

– هل تتزوجها ياعثمان . .

وقال عثمان كأنه خجول :

– الأمر أمرك ياست هانم . .

وسألت نفسها خلال فرحتها . . كيف قبل عثمان زواج فيوليتا . . لابد أنها اقنعته بأن يتزوجها . . ولكن كيف اقنعته . . انها فى منتهى الذكاء ومنتهى الشطارة ولاشك انها كانت تريد الاطمئنان الى بقائها فى مصر . .

لاحبا فى مصر ولا فى عثمان ولكن حرصها على أجرها الكبير الذى تتقاضاه بالدولارات . .

وسارعت ست البيت بعقد زواج عثمان وفيوليتا . . وقد راعت ان يعقد فى السر ودون ضجة . . فاستدعت المأذون الى البيت فى ساعة الظهر وأوقفت امامه العروسين وطلبت من زوجها ان يوقع كشاهد . . رغم أنها كانت قد وعدت ان يبقى الزواج سرا حتى عن زوجها ارضاء لعثمان . . بل انها اكتشفت أن هذا العقد يجب ان يسجل فى مكاتب الشهر العقارى حتى يصبح عقدا كاملا وتعترف به الحكومة . . فان العروس أجنبية . . فاستطاعت ان تعد كل شىء ليذهب عثمان ويسجل عقد زواجه . . وقد دفعت هى كل تكاليف هذا الزواج . . وان كانت لم تفكر طبعا فى دفع المهر او شراء شبكة . . وان كانت قد رفعت مرتب عثمان عشرة جنيهات أخرى شكرا ومكافأة له على زواجه من فيوليتا . .

وتصورت ست البيت انه لم يتغير شىء فى حياة البيت بعد هذا الزواج . . ولم يزد شىء إلا اطمئنانها الى بقاء فيوليتا معها ، ولن تستطيع الحكومة ان تطردها من خدمتها . . والحياة تسير فى روتينها العادى . . تنام فيوليتا فى مكانها المعد لها فى غرفة الأولاد . . وينام عثمان فى حجرته فوق السطوح . . ساعات العمل لاتختل . . ولكنها لاحظت أن فيوليتا بعد ان ينزل عثمان من السطوح تسرع وتعد له كوب الشاى . . ويجلس مرتاحا وهو يشربه . . ثم لاحظت أنها بعد أن تنتهى من أعمال البيت تصعد الى السطوح دون استئذان بينما يبقى عثمان داخل الشقة ولايصعد معها . . ربما تصعد وحدها لتقوم بتنظيف وتسوية الغرفة التى ينام فيها زوجها . . إنها زوجة كاملة . . ثم فوجئت فى صباح يوم الاحد وفيوليتا متكاسلة عن الذهاب الى الكنيسة كعادتها . . وسألتها فى دهشة :

– الا تذهبين الى الكنيسة ؟

وقالت بلامبالاة

ـ انى أصلى بينى وبين نفسى فعثمان لايريدنى أن اذهب الى الكنيسة . .

وقالت محتدة :

ـ هذا ليس من حقه . . إن الاسلام يبيح الحرية لكل دين . . حتى لو تزوج مسلم من مسيحية . .

وقالت فيوليتا فى هدوء :

ـ سواء كان من حقه أو لم يكن . . فان هذا يريحه . .

بل إن فيوليتا لم تعد تذهب الى صديقاتها الفلبينيات يوم الأحد . . انما أصبحت تقضى يوم الاجازة كله فوق السطوح وفى غرفة زوجها . . حتى وهو بعيد عنها يعمل فى الشقة لأن اليوم ليس يوم أجازته . . بل اصبحت عندما تدعو صديقاتها كما تعودت لاتدعوهن الى داخل البيت بل تدعوهن للجلوس معها فوق السطوح . .

ولم تحاول ست البيت أن تتدخل فى هذه التغيرات التى تحدث . . فكلها تغيرات لاتؤثر فى أعمال البيت . . رغم أنها تدهش لأى تغير فى حياة فيوليتا وعثمان رغم أنهما لا يعيشان حياة زوجية كاملة . . ولايزال كل منهما مستقلا بشخصيته عن الآخر وينام وحده فى مكانه . . ولم تتدخل الا عندما حاولت أن ترسل فيوليتا الى السوق لتشترى بعض الاحتياجات . . فرفضت معتذرة . . لأن عثمان يرفض أن يسمح لها بأن تخرج وحدها . . ويراها أصدقاؤه ومعارفه فى الطريق . . من يدرى ربما تجرأ عليها أحدهم . . ولكنها أصرت على أن ترسلها الى السوق ، ونادت عثمان وأبلغته باصرارها على أن تخرج فيوليتا . .

وقال عثمان فى اصرار هو الآخر :

ـ لايصح ياسيدتى أن تخرج وحدها . . واذا اصررت سيادتك فسأخرج معها .

ـ إن عثمان يتغير لم يعد هذا الشخص الشاذ فى بساطة ساخرا من كل شىء . . مستسلما حتى لفقره .

وقد اضطرت ست البيت يومها ان تكلف عثمان بالذهاب الى السوق وحده بدلا من زوجته فيوليتا حتى لاتثير ازمة معه فى مواجهة اصراره . .

وربما كان على حق فى هذا الاصرار . . فان خبر زواجه من فيوليتا لم يعد سرا وعرف بين كل من فى العمارة . . بل وعرف خارج العمارة حتى أن احدى صديقاتها فاجأتها فى احدى الزيارات قائلة :

ـ سمعنا ان خادمتك الفلبينية تزوجت من السفرجى الذى يعمل عندك . .

وافتعلت ضحكة واجابتها قائلة :

ـ إنها حكاية حب . .

وكانت تكذب . . فعثمان وفيوليتا لم يتزوجا عن حب . . انهما تزوجا بتخطيط وضعته لتهرب من قرار الحكومة بطرد فيوليتا . . وهذا الزواج لم يعد سرا وتستطيع أن تنكره فعلى الأقل تحاول أن تنفى عن نفسها انها خططته تحايلا على قرار رسمى . .

الى ان فوجئت يوما بعثمان يقف امامها بعد انتهاء عمله وقال بصوته الذى شمله التغيير أيضا وأصبح صوتا جادا مركزا ليس فيه رنة الشذوذ :

ـ ياست هانم . . لى طلب أرجو ألا ترفضيه . .

وقالت مبتسمة

- اطلب ياعثمان . .

وقال دون ان يهتز او يرتعش . .

- انى اعلم أن فيوليتا تقبض مرتبها بالدولار . . وانا أيضا أريد أن آخذ بالدولار . .

وانتفضت مذعورة ، وقالت وكأنها تصرخ :

- ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها فى البنك ويحول الى عائلاتها . . وانت وعائلتك تعيشون فى مصر فما حاجتك الى الدولارات . .

وقال عثمان وهو يتنحنح فى هدوء :

- لقد اصبحت اعرف كل شئ عن عائلة زوجتى . . لقد اصبحت عائلتى . . واعرف اين تذهب الدولارات التى توضع لها فى البنك . . وأريد أن أحصل أنا أيضا على دولارات حتى نكون فى حالة واحدة . . و . .

وقاطعته صائحة :

- ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها عليكم . . وانا اعانى مصاعب كثيرة لأحصل على الدولارات لفيوليتا . . ولن أستطيع أن أحصل على المزيد لادفع لك أيضا بالدولار . . وإذا كنت تريد زيادة مرتبك بعد أن تزوجت . . فقد أعطيتك زيادة . . وقد أعطيك اكثر . . ودائما اعطيك بالجنيهات لا بالدولارات . .

وقال عثمان وهو يبتعد فى هدوء :

- شكرا ياست هانم . . ولامؤاخذة . .

وابتعد عنها دون أن يزيد إلحاحا واصرارا . . وهى متعجبة . . كيف

خطرت له فكرة أن يأخذ أجره بالدولار . . لاشك أن فيوليتا هى التى وضعت هذه الفكرة فى رأسه وحرضته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار وتحتاج اليه فى تعاملها مع الخارج . . ونادت فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها تصب غضبها عليها وتهم أن تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة لامعنى لها . . إلى ان صاحت فى وجهها :

- حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من أن يعود الى حديث الدولارات . . والا حرمتك انت ايضا منها . . فأنت اليوم زوجة مصرية وكل حقك لايتعدى الجنيهات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . ابلغت عثمان بانها قررت أن تعطى زوجته فيوليتا عشرة جنيهات كل شهر علاوة على مرتبها بالدولار حتى تغطى احتياجاتها التى تجدها فى مصر . . وقالت له ضاحكة :

- انى لا أعطيها الا لأنى اعتبر ان ما اعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . اربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات صباح فلم تجد فى البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهرول بحثا عنهما . . الى أن وجدت خطابا متروكا فى مكان ظاهر على المائدة ويحمل اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر فى كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل فى السعودية . . وهما وان كانا يقبضان مرتبهما هناك بالريال السعودى الا أن من السهل تحويله الى دولارات . .

وسقطت منهارة . .

وداهمها وهى منهارة تساؤل كان غائبا عنها . . كيف استطاعت فيوليتا أن تخرج من مصر فى حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

ـ اطلب ياعثمان . .

وقال دون ان يهتز أو يرتعش . .

ـ انى أعلم أن فيوليتا تقبض مرتبها بالدولار . . وانا أيضا أريد أن آخذ بالدولار . .

وانتفضت مذعورة ، وقالت وكأنها تصرخ :

ـ ان فيوليتا لاتأخذ دولارات ولكننا نضعها لها فى البنك ويحول الى عائلاتها . . وانت وعائلتك تعيشون فى مصر فما حاجتك الى الدولارات . .

وقال عثمان وهو يتنحنح فى هدوء :

ـ لقد اصبحت أعرف كل شئ عن عائلة زوجتى . . لقد أصبحت عائلتى . . واعرف اين تذهب الدولارات التى توضع لها فى البنك . . وأريد ان أحصل انا أيضا على دولارات حتى نكون فى حالة واحدة . . و . .

وقاطعته صائحة :

ـ ان زوجى وسيدك وسيد البيت لايقبض بالدولارات حتى نوزعها عليكم . . وانا اعانى مصاعب كثيرة لأحصل على الدولارات لفيوليتا . . ولن أستطيع أن أحصل على المزيد لادفع لك ايضا بالدولار . . وإذا كنت تريد زيادة مرتبك بعد أن تزوجت . . فقد أعطيتك زيادة . . وقد اعطيك اكثر . . ودائما اعطيك بالجنيهات لا بالدولارات . .

وقال عثمان وهو يبتعد فى هدوء :

ـ شكرا ياست هانم . . ولامؤاخذة . .

وابتعد عنها دون أن يزيد إلحاحا واصرارا . . وهى متعجبة . . كيف

خطرت له فكرة أن يأخذ أجره بالدولار . . لاشك أن فيوليتا هى التى وضعت هذه الفكرة فى رأسه وحرضته عليها . . إنها وحدها التى تعرف قيمة الدولار وتحتاج اليه فى تعاملها مع الخارج . . ونادت فيوليتا وأخذت تناقشها كأنها تصب غضبها عليها وتهم أن تضربها . . وفيوليتا لاترد الا بكلمات عابرة لامعنى لها . . إلى أن صاحت فى وجهها :

ـ حذرى عثمان الذى أصبح زوجك من أن يعود الى حديث الدولارات . . والا حرمتك انت أيضا منها . . فأنت اليوم زوجة مصرية وكل حقك لايتعدى الجنيهات المصرية . .

وانتهت الازمة . . وحتى ترضيها . . ابلغت عثمان بانها قررت أن تعطى زوجته فيوليتا عشرة جنيهات كل شهر علاوة على مرتبها بالدولار حتى تغطى احتياجاتها التى تجدها فى مصر . . وقالت له ضاحكة :

ـ انى لا أعطيها الا لأنى اعتبر أن ما اعطيه هو لك . .

كم مضى ؟

شهران . . ثلاثة . . اربعة . . واستيقظت ست البيت من النوم ذات صباح فلم تجد فى البيت لا فيوليتا ولا عثمان . . وجنت وهى تهرول بحثا عنهما . . الى ان وجدت خطابا متروكا فى مكان ظاهر على المائدة ويحمل اسمها . . وهو خطاب باللغة الانجليزية كتبته لها فيوليتا . . وهى تعتذر فى كلمات مهذبة عن ترك الخدمة هى وزوجها عثمان . . وقد سافرا للعمل فى السعودية . . وهما وان كانا يقبضان مرتبهما هناك بالريال السعودى الا أن من السهل تحويله الى دولارات . .

وسقطت منهارة . .

وداهمها وهى منهارة تساؤل كان غائبا عنها . . كيف استطاعت فيوليتا أن تخرج من مصر فى حين انها تحتفظ بجواز سفرها معها . . كأنها

كانت تحتفظ بها كلها فى يدها حتى لاتهرب منها . . وقامت تترنح فى مشيتها بين قطع الاثاث . . وفتحت الدرج الذى تحتفظ فيه بجواز سفر فيوليتا . . انه ليس فى الدرج . . لقد سرقته . . وكان من السهل عليها ان تسرق كل شىء . . فقد كانت تثق فيها ومطمئنة اليها . . ولكنها فى الواقع لم تسرق الا جواز السفر . . لاشىء آخر رغم كثرة ماق أدراجها . . ورغم ذلك فكان يجب الا تطمئن اليها . . لاتطمئن الى الطموح الذى يسيطر على كل من يعمل خارج بلده . والذى قد يدفعه الى الكذب والى السرقة . . والى الهرب . . وقد حاولت أن ترضى طموح فيوليتا بالحب الذى كانت تسبغة عليها . . ولكن لعل فيوليتا لم تكن تؤمن أو تعرف الحب . . انها جردت عثمان أيضا من الحب بعد أن تزوجته . . حب البيت الذى تعمل فيه والعائلة التى تعمل معها . . ان طموحها فوق الحب . . طموح ينحصر فى كم تكسب . . حتى أنها كانت حريصة على ألا تهرب من العمل هى وعثمان الا فى اوائل ايام الشهر الجديد بعد ان اطمأنت الى انها هى وعثمان قد تسلما المرتب كاملا . .

ورقدت ست البيت على فراشها وهى تقاوم انهيارها . .

انها تستطيع ان تقاوم ضياع فيوليتا منها . .

ولكنها لاتستطيع ان تقاوم ضياع عثمان بعد هذا العمر الطويل الذى قضاه فى بيتها ومعها ومع اولادها . . كأنه كان يدا تتحرك فى كيان كل منهم . .

ولكنها ست بيت قوية . .

وتعتبر عثمان كأنه مات . .

◐ ♦ ◑

أرى أمى معلقة فى أذنيك ..

كانت فريدة قد ذهبت فى الصباح إلى حى خان الخليلى كعادتها فى كثير من الأيام . . فهى تحب التردد على دكاكين صياغة الحلى ودكاكين التحف القديمة التى تعتمد على الصناعة اليدوية وتحمل مهارة يد الصائغ المصرى من هذه التحف من أعاجيب . . وحى ودكاكين خان الخليلى ليس مخصصا للسياح كما يتصور البعض . . إن أغلبية هذا الزحام من الزبائن كلهم من النساء المصريات . . وبينهن فلاحات وبنات بلد وبنات ذوات . . وكل منهن معها مايكفى للشراء . .

وكانت فريدة لاتشترى دائما كلما ذهبت الى خان الخليلى . . كانت فى الغالب تكتفى بالتمتع بالفرجة على المعروضات . . وقد ذهبت فى هذا اليوم دون أن تحدد شيئا تشتريه . . ولكنها رأت وهى فى دكان أحد الصاغة قرطا ذهبيا أثار اعجابها . . إنه مرسوم على شكل عدة قلوب ذهبية صغيرة متشابكة فى دائرة تتوسطها مجموعة من الفصوص الذهبية الصغيرة جدا كأنها ترمز عن تنهدات هذه القلوب بالحب . .

والتقطت فريدة هذا القرط وعلقته فى أذنيها ووقفت تتفرج على نفسها أمام مرآة الدكان . . واحست كأن هذا القرط يعلن حبها . . كأنه يقول لكل الناس انها فى حالة حب . . تحس وهى تعلقه فى أذنيها كأنها تعلق حبها لزوجها علام . . ستشتريه . . قطعا ستشتريه . . حتى يرى علام حبه معلقا فى أذنيها . .

وقالت للبائع وهى فرحة أنها عثرت على حلم من احلامها .

- منذ متى ولديك هذا القرط . . انى لم أره لديك من قبل ؟

وقال البائع كأنه يروى لها تاريخا لتحفة عريقة :

- انه فى الأصل مصاغ فلاحى . . كان منتشرا فى الأرياف منذ سنوات طويلة . . وقد جئنا به الى القاهرة منذ أسابيع فقط لمجرد تجربته ، دون أن نكون متأكدين بأن أذواق نساء القاهرة ستتفق مع أذواق نساء الريف . . ولكننا ماكدنا نعرضه حتى أقبلت عليه نساء القاهرة وانتشر انتشارا واسعا . .

وقالت فريدة من خلال فرحتها :

- سأشتريه . . كم ثمنه ؟

وقال البائع بلباقة التجار :

- اننا لسعة انتشاره بين مختلف الطبقات صنعناه من ثلاثة أصناف . . صنعناه من المعدن المذهب بثمن اثنين ونصف من الجنيهات . . وصنعناه من الفضة المطلية بالذهب بثمن أربعين جنيها . . ثم من الذهب الخالص بثمن مائة وخمسين جنيها . . لقد أصبح كأنه شارة شعبية . .

وقاطعته فريدة ضاحكة :

- انه شارة الحب . .

وقال البائع من خلال ابتسامة التجار :

- أى صنف منه تريدين ؟

وفكرت برهة . . أن هذا القرط سيكون شعار حبها لزوجها علام . . حبها الغالى . . ويجب أن يكون شعارا غاليا من الذهب الخالص . . وقالت بانطلاق :

- سأشترى الذهب . . ولكن ليس معى الآن سوى خمسين جنيها وسأعود اليك بالباقى غدا . . هل أستطيع أن آخذها اليوم وانت مطمئن الى الغد . .

وقال وهو يجمع لها الحلق فى علبة من القطيفة الحمراء :

- طبعا . . طبعا . .

وهو فعلا مطمئن . . فهو يعرفها كزبونة . .

* * *

وعادت فريدة الى البيت وجلست أمام المرآة فى انتظار عودة زوجها علام من عمله . . وساوت شعرها بأن رفعته حتى يكشف عن اذنيها وعلقت فيهما قرط الحب . . وقضت فترة أمام المرآة وهى تبحلق فى القرط على اذنيها . . لاشك أن زوجها سيطير من الفرحة عندما يرى قلوب الحب . . سيرى نفسه وكأنه معلق فى أذنيها . . حتى لو حاول أن يحتفظ بطبيعته الكتومة الجامدة فى التعبير عن عواطفه . . فلن يستطيع عندما يرى الحلق الا أن يطلق فرحته . . قد يزغرد فرحا وهو يحتضنها بين ذراعية بعد أن يثير الحلق فيه حبه وحبها . . أو على الأقل قد يبتسم وهو الضنين بابتسامته . . ويقبلها ولو قبلة من هذه القبلات الشريفة التى عودها عليها . .

وعاد علام :

ووقفت أمامه وبين شفتيها ابتسامة فرحة صامتة فى فرحتها :

ولكن علام لم يلمح القرط فى أذنيها . . ولعله لم يلمح ابتسامتها ايضا . . وهم أن ينسحب من أمامها ويدخل حجرته ليبدل ثيابه استعدادا للجلوس على مائدة الغداء . . فجرت وراءة وجذبته من ذراعه ليستدير اليها وهى واقفة أمامه . . وقالت محتفظة بابتسامتها وفرحتها

- الا ترى فىّ شيئا جديدا . .

وقال فى دهشة :

- أين هذا الشىء الجديد ؟

وقالت فى لهجة كرم :

- على أذنى . .

ورفع علام عينيه الى أذنيها وما كاد يرى القرط حتى تجهم وتهدجت أنفاسه ، ثم قال وهو يبدو كأنه يقاوم نفسه وقد أصبح صوته محشرجا :

- انه قرط فلاحى :

قالت وهى تحاول أن تثير فيه فرحتها :

- أعلم . . ولكنه اليوم أصبح موضة القاهرة . . الا ترى ما يرمز اليه . .

وقال وقد بدأ صوته يحتد :

- انه يذكرنى بأمى وانت تعلمين انى لا أحتمل ذكر المرحومة امى وإلا عدت الى البكاء عليها . . ارفعى هذا القرط من اذنيك . .

وقالت فى دهشة :

- ولكنى اشتريته لأنه يرمز الى الحب الذى يجمعنا . . وهو ايضا يعجبنى . .

وصاح وقد فقد اعصابه :

- اخلعيه . . واعيديه الى البائع او اكتفى بالظهور به بين صديقاتك بعيدا عنى . . لا أريد ان أراه . . لا أريد أن أراه . .

ورفعت فريدة يدها وشدت القرط من فوق اذنيها وهى دهشة من ثورة زوجها الى هذا الحد . . خيل اليها أنه قد أصابه جنون . . وقالت فى صوت حزين بعد أن ضاعت فرحتها :

- انى لم أدفع ثمنه . . وسأعيده غدا . .

وظلت صامتة وهى تساعده فى تغيير ملبسه . . ثم قالت وهى تحاول ان تكون هادئة :

- على الأقل قل لى ماذا لايعجبك فى هذا القرط . .

وانطلقت عيناه مبحلقتان وقال فى حده :

- لن اقول لك شيئا ولا أريد أن اسمع شيئا عن موضوع هذا القرط . .

ولم يستطع أن يأكل على مائدة الغداء . . كان ساهما يتحرك وهو جالس فوق مقعده كأنه يحاول أن يهرب من مطاردة . . وقام فجأة وجرى الى الفراش وادعى النوم كعادته بعد الغداء . . ولكنه لم يكن نائما . . وكان يقلب رأسه فوق الوسادة ، وكأنه يطرد ذكرى تكاد تهشمه :

إن هذا القرط سبق وقتل اثنان . .

* * *

لقد كان أيامها لايزال صبيا فى السابعة من عمره . . وكانت العائلة كلها تقيم فى القرية . . وكان لهم فيها دواراً واسعا بجانب العشرة أفدنة التى يملكها والده ويزرعها . . وكانت أمه تضع هذا القرط على أذنيها

دائما . . ليلا ونهارا . . حتى وهى تعمل فى الدوار أو فى الحقل . . كان القرط يميزها عن باقى نساء القرية . . وتتباهى به . . وكأنها تعلن به أن زوجها رجل مقتدر يعلق الذهب فى أذنيها . . أو لعلها كانت تؤمن بأنه قرط الحب . .

وكانت أمه تعمل أمام الفرن فى الدوار تعد أرغفة العيش الفلاحى المرحرح ومعها مسعدة زوجة برهوم ابن جارتهم أم برهوم . . والصبى علام يلعب بجانبهما . . وسقطت فردة من القرط من أذن أمه فوق الحطب المعد لالقائه فى الفرن كلما هبطت ناره . . ولم ير علام فردة القرط وهى تسقط من أذن امه ولكنه رأى مسعدة وهى تنحنى فى حركة مفاجئة فوق الحطب وتأخذ بأصابعها شيئا تخفيه بسرعة فى صدرها تحت ثوبها . . ولم يهتم علام بما رآه مستمرا فى اللعب . .

الى أن انتهى الخبيز وعادت مسعدة الى بيتها . . وفجأة اكتشفت امه ضياع فردة القرط من فوق اذنها . . وانحنت فى لهفة مجنونة تبحث فى كل انحاء غرفة الفرن . . وترفع حطب الفرن واحدة بواحدة . . وتتحسس بيدها فوق تراب الارض وتحت التراب . . انها متأكدة أن القرط سقط من اذنها . . ولكن اين سقط . . وأين اختفى . . وبلغ من جنونها أنها ادخلت رأسها وزراعيها داخل الفرن رغم انه كان لايزال محتفظا بناره بحثا عن القرط . .

وعلام لاه . عن أمه يلعب بعيدا عنها . . الى أن يأست أمه من العثور على فردة القرط . . وسقطت على الارض تبكى . . انها لاتبكى القرط وحده ولكنها تبكى أيضا خوفها من زوجها عندما يعود ولايرى فردة القرط فى أذنها ويعلم بالخبر . . لقد عاش معها كل السنوات والقرط فى أذنيها كأنه قطعة من لحمها . .

وعاد أبو علام . . وسمع الصبى ابوه يصيح صياحا حادا فى وجه أمه ورآه كأنه يهم بضرب أمه . . ولو أنه لم يضربها فى حياته ابدا . . ثم رأى

اباه ينحنى هو الآخر باحثا عن القرط حول الفرن وفى كل أنحاء البيت . . وفجأة تذكر الصبى صورة مسعدة وهى تنحنى فجأة فوق الحطب وتلتقط شيئا تخفيه فى صدرها . . واستنتج بذكائه . . وهو يفيض بالذكاء منذ صباه بدليل ما هو فيه الآن بعد أن ترك القرية واتم تعليمه . . وأصبح من كبار الموظفين . . استنتج أن مسعدة أخذت فردة القرط التى يبحث عنها أبوه وامه . . وصاح فيهما :

ـ ان مسعدة أخذته :

والتف الاب والأم حول الصبى وعصروه بأسئلتهما كأنهما يحققان معه حتى تغلب عليهما التأكد بأن مسعدة هى التى أخذت القرط . . سرقته . .

وخرجت الأم من الدوار كأنها تجرى الى جارتها أم حمدان . . وانفردت بها وصارحتها بأن مسعدة زوجة ابنها برهوم قد سرقت فردة القرط . . وبعد أن روت لها كل الحكاية وطالت المناقشة بينهما . . رجتها أم حمدان متوسلة أن تتركها ساعة وستعود اليها فى الدار ومعها فردة القرط . .

واستدعت أم حمدان مسعدة زوجة ابنها وصرخت فى وجهها :

ـ لم يبق الا أن نصبح لصوصا ونعيش بين أهل القرية ونحن لصوص . . هات فردة القرط . .

وحاولت مسعدة وهى ترتعش أن تنكر . . إنها لم تأخذ شيئا . . ولاتعرف شيئا . . ولكن حماتها انهالت عليها ضربا حتى أخرجت سيخ الفرن وهو مشتعل بالنار وهمت أن تغرزه فى صدرها . . لولا أن اعترفت مسعدة . .

إنها أخذت فردة القرط وعادت الى بيتها وأرته لزوجها برهوم فأخذه

منها وأوصاها الا تفشى السر لأحد حتى ولا لأمه . . وهددها بأن يقتلها لو كشفت السر . . وبرهوم معروف بين أهل القرية بالشراسة والبجاحة . . وإسمه يرتفع مع كل جريمة تقع حول القرية . . ولعله أخذ قطعة الذهب المسروقة ليبيعها فى المركز . . ولكن السرقة حدثت اليوم ومنذ ساعات ولايمكن أن يكون قد مر وقت كاف يستطيع برهوم أن يذهب فيه الى المركز ويبيع . .

واستدعت أم حمدان ابنها برهوم وأجلسته امامها وحادثته فى هدوء وهى تحسب حساب شراسته واجرامه . . وقالت له ان زوجته مسعدة لم تكشف السر . . ولكن كشفته أم علام وابنها هو الذى شاهد مسعدة وهى تخفى القرط فى صدرها . . وعليهم أن يعيدوه الآن الى أصحابه . . والا انقلبت القرية كلها . .

واستسلم برهوم وهو يزأر كالأسد الذى فرت منه فريسته . .

وأعاد القرط المسروق . .

* * *

ولم ينس برهوم أن زوجته مسعدة قد كشفت سره رغم تحذيره لها بأنه سيقتلها اذا كشفته . .

هى التى قالت لأمه انها أعطته القرط المسروق . . كانت تستطيع أن تقصر السرقة على نفسها . . وتقول أن القرط ضاع منها . . وحتى لو استسلمت فقد كان يمكنها أن تستسلم دون ذكر اسمه ودون أن تبلغ امه انه أخذ منها القرط المسروق وهددها بالقتل اذا أفشت السر . . وربما كان قد أعاد القرط وهو يدعى أنه وجده مع زوجته مسعدة وأخذه منها غصبا عنها بعد أن ضربها ليؤدبها حتى يبرىء نفسه امام أهل القرية . .

ولكن الآن أصبح السر مكشوفا . . والناس تقول انه هو الذى حرض

زوجته على السرقة وهو الذى استولى على القرط المسروق . . واصبحوا يبصقون فى وجهه بالشتائم والاتهامات . . وحتى الأطفال أصبحوا يتجمعون خلفه ويهتفون . . تسرق ليه يابرهوم . . وتفضح أمك يابرهوم . .

اذن يجب أن تقتل مسعدة التى كشفت السر وفضحته . .

وخرج بها فى الفجر بحجة انها تريد زيارة امها فى قريتهم القريبة . . وكان قد اقنعها فعلا بان يأخذها لزيارة أمها . . ولم يبتعد بها عن القرية بل شدها الى جانب مستور من الحقل وذبحها . . ثم استطاع أن ينقل الجثة ويعود بها الى البيت ويحفر حفرة فى فنائه دفنها فيها . .

ان برهوم قاتل محترف وهو لم يقتل زوجته فى البيت حتى لايتعرض لصرخاتها التى قد توقظ امه . . وعاد ودفنها فى فناء البيت حتى يتأكد من انه لايمكن اكتشاف جثتها . . ولكن أمه وحدها عرفت كل شىء . . لقد استيقظت فى الليل على صوت ضربات الفأس فى يد برهوم وهو يحفر فى الفناء قبر زوجته . . واختفت سريعا قبل أن يراها ابنها حتى لايقتلها هى الأخرى ويدفنها بجانب زوجته مسعدة . .

ومضت أيام مسعدة لاتعود الى القرية . . وقال برهوم انها غاضبة وتقيم مع أهلها ولاتريد العودة . . وهو لن يعيدها لأنه لايريد أن يعيش مع لصة سارقة . . وأمه توافق ابنها على مايقول كلما سألها أهل القرية . . ولكنها اصبحت فى حالة ذهول . . انها جالسة القرفصاء دائما فوق القبر الذى حفره ابنها برهوم . . ولاتتكلم أبدا . .

ولاتنطق بحرف . . وتنام وهى جالسة القرفصاء ولاتتحرك أبدا . . وبدأ الناس يقولون عنها أنها أصبحت مجنونة .

وفوجىء أهل القرية بعد هذه الأيام بأم مسعدة تأتى إليهم لتزور ابنتها . . وعندما التف حولها الناس يسألونها . . الم تكن ابنتك عندك . . كانت تجيب بأنها لم تزرها أبدا منذ شهور ولم تراها أبدا . . وبدا الناس

يتساءلون . . أين ذهبت مسعدة . . ثم بدأوا يتساءلون . . ماذا فعل بها زوجها برهوم وأين أخفاها . . وأم مسعدة تجلس بجانب أم برهوم ليل نهار وهى لاتكف عن ترديد أين ابنتى . . أين مسعدة . . وأم برهوم صامته لاتنطق . . ثم فجأة بعد أن إنقضى نهار وليل ثم إنقضى نهار آخر . . انتفضت فجأة من جلستها صارخة :

– هذه هى ابنتك . . مقيمة معنا فى البيت . .

ثم التقطت فأسا وأخذت تحفر فى أرض الفناء حتى تكشف القبر وظهرت جثة مسعدة . . والقت بنفسها فوق الجثة وماتت معها . .

وثار اهل القرية كلهم ووجدوا برهوم وانهالوا عليه ضربا . . الى أن تسلمه الخفير واحتفظ به الى أن جاء بوليس المركز . .

وقدم برهوم الى المحاكمة وأدخل السجن المؤبد مع الاشغال الشاقة . .

ولكن حتى برهوم لم ينج من الموت . . لقد كان يقطع صخور الجبل وهو فى السجن فسقط على رأسه صخرا ثقيلا قتله فى الحال . .

* * *

وكان الصبى علام يتتبع كل هذه الأحداث التى تشهدها القرية وهو فى ذهول . . انه يحس أنه كان السبب فى كل ماحدث . . لولا انه أبلغ امه واباه أن مسعدة هى التى سرقت فردة القرط لما حدث شىء . . انه لم يحس كما يحس الأطفال بأنه كان بطلا أعاد لأمه قرطها من يد اللصوص . . ولكنه كان يحس بأنه كان السبب فى كل ماجرى لمسعدة . . لقد كان يحبها . . كانت اكثر امرأة فى القرية تدلله وتتحمل شقاوته . . وعندما علم أنها قتلت . . وجد نفسه ينزوى تحت الشجرة ويبكى . . لقد قتلت مسعدة من اجل فردة قرط تتحلى به امه . . حرام . . والله حرام . . وحتى عندما

دخل برهوم السجن . . وبعد أن قتل هو الاخر . . كان يبكى . . إن برهوم قتل زوجته ثم مات . . من اجل هذا القرط الذى تتحلى به امه . . حرام . . والله حرام . .

وأصبح يكره هذا القرط ولا يستطيع أن يراه . .

إن هذا القرط قتل اثنين . . قتل مسعدة وزوجها .

ولكنه فى أذنى امه دائما . . لاتريد أن ترفعه ولاتستطيع الاستغناء عنه . . وهو لايعرف كيف يتخلص منه . . وقد خطرت على باله مرة أن ينزعه من على أذنى امه وهى نائمة ويلقيه فى الترعة . . ولكنه لم يجرؤ . . وعود نفسه على الا ينظر الى أذنى امه أبدا . . وبدأ يستريح من هذا القرط عندما كان يترك القرية ويعيش فى بيت عمه فى طنطا بعد أن كبر ودخل المدرسة الابتدائية ثم الثانوية . . ثم استراح اكثر عندما أصبح يعيش فى القاهرة طالبا فى الجامعة . . ولكنه كان لايعود الى القرية الا ويرى القرط فى اذنى امه . .

لقد ماتت أمه والقرط فى اذنيها . .

رحمها الله . .

* * *

وقد مضت سنوات طويلة وقد نسى هذا القرط الذى دفعه الى قتل اثنين . . كما نسى كل أحداث القرية بعد هجرها وابتعد عنها حتى أنه باع العشرة أفدنه التى ورثها عن ابيه فيها . . ولم تعد له من القرية سوى ذكريات لاتخطر على باله الا كلما فاجأته مناسبة تذكره بها . .

إلى ان جاءت زوجته وفى أذنيها هذا القرط . . نفس القرط الذى دفعه ليقتل اثنين . .

وراسه تتحرك فوق الوسادة بعنف كأنه يريد أن ينزعها من عنقه ليتخلص من ذكريات هذا القرط . . ولكنه يجب أن يقاوم . . لماذا يستسلم لذكريات خياله وهو طفل بعد أن أصبح رجلا كاملا ناجحا . .

إن هذا القرط لم يقتل مسعدة ولابرهوم . . ماهذا الخيال المجنون . . لقد قتلهما طبيعتهما الشريرة . .

وقفز من الفراش وصاح فى زوجته فريدة :

- اين هذا القرط الذى اشتريتيه . .

وفتحت فريدة الدولاب فى هدوء وقدمت له القرط . .

وعاد يصيح دون أن يلمسه أو ينظر فيه :

- ضعيه على اذنيك . .

وعلقت فريدة القرط فى اذنيها وهى صامتة . .

وعاد علام يقول كأنه يحادث نفسه دون أن ينظر الى القرط فى اذنى فريدة :

- انه قرط أمى . . وسأرى أمى فيك . . الله يرحمها . .

البحث عن الشخصية الأخرى ..

إنه مقاول عمليات بناء . . يستطيع أن يبنى أى شىء . . وليس هو الذى اختار أن يكون مقاولا . . ولقد ولد ووجد نفسه مقاولا مع أبيه . . ومنذ كان فى الثانية عشرة من عمره وأبوه يدربه على أعمال المقاولات فعرف كل تفاصيلها وأسرارها . . عرف كيف يدخل فى المشروعات الحكومية ، وكيف يدفع لوكيل الوزارة أو لرئيس مجلس الادارة ، ولهذا وذاك من الموظفين حتى يفوز على باقى المقاولين بالمشروع . . وعرف كيف يشترى أو يستورد المواد التى يحتاج اليها المشروع ، وكيف يدخل مادفعه من اثمانها وتكاليفها فى الميزانية بحيث يكسب من ورائها المبالغ الضخمة وكأنها عملية قائمة بذاتها لايقوم بها كمقاول ولكن كتاجر شاطر يشترى ويبيع . . وعرف كيف يتعامل مع الأنفار الذين يعهد اليهم بعمليات البناء بحيث يخصص لنفسه نسبة من الأجور والأتعاب التى يكسبونها بفضله دون أن يتركهم يكتشفون انه كسب بفضلهم شيئا . . فمقاول البناء الشاطر هو أيضا مقاول أنفار . . ومهما استعان بصغار مقاولى الأنفار الذين يجمعون العمال فهو نفسه مقاول الأنفار الرئيسى والكبير عليهم ، وله النصيب الأكبر من مكاسب العملية . .

ورغم أن أباه اعترف له منذ صغره بعبقريته كمقاول حتى انه كان يتركه يقوم بعمليات خاصة به وهو لايزال فى التاسعة عشرة من عمره . . ورغم ذلك فانه لم يكن يتفاخر أو يتباهى بأنه مقاول ناجح . . ربما لأنه لم يكن يريد أن يعيش كأبيه الذى لايزال يظهر بين الناس بالجبة والقفطان أو بالجلباب البلدى حتى لو كان من قماش السكروته الغالى . . ويقضى يومه بين العمال داخل العملية التى يقوم بها كمقاول . . ويتكلم كما يتكلمون وقد يجلس بينهم ليشاركهم أكل العيش والطعمية فى فترة الغداء . . انه رغم

تمسكه واقتناعه بالدخل الكبير الذى تحققه مهنة المقاول إلا انه لايريد أن يعيش حياة المقاولين كما يعيشها أبوه . . بل لايحب أن يعرف كمقاول . . كأن صفة المقاول لاتشرف صاحبها وترفعه إلى قمة المجتمع . . ورغم أن عثمان أحمد عثمان جعل للمقاولين العرب شخصية من أرقى شخصيات المجتمع ، وهو نفسه وصل الى قمة المجتمع حتى وصل الى أن يكون وزيرا بل وأن يكون نائبا لرئيس الدولة . . وهو محتفظ بصفته كمقاول ، ويتفاخر باسمه كرئيس شركة المقاولين العرب . . إلا انه لم يتأثر بشخصية عثمان أحمد عثمان كما لم يتأثر بشخصية أبيه حتى لو كان قد ورث عنه عبقريته كمقاول . .

إنه لايكتفى بأن يكون معروفاً كرجل واسع الثراء استطاع أن يجمع الملايين عن طريق المقاولات . . إنه يريد أن يكون معروفا ومشهورا كصاحب موهبة خاصة تبهر الملايين من أفراد الشعب . . وقد انتابه هذا الاحساس منذ صباه فحاول أن يكون لاعب كرة . . أشهر لاعب كرة فى مصر إلى أن يصبح أشهر لاعب كرة فى العالم كله . .

والتحق بنادى الزمالك وعاش فى عالم الكرة . . وكل أصدقائه ومن يعرفهم من لاعبى الكرة . . وبدأ التدريبات . . ومرت سنوات وهو يتدرب دون أن يقنع تدريبه أحد بأن يضمه إلى فريق النادى ولاحتى اعتباره لاعب كرة . . ولكنه كان سخيا فى المساهمة فيما يحتاجه فريق النادى من نفقات . . وكان مفرطاً فى تكريم كل اللاعبين . . كان يقيم لهم كثيرا من الدعوات والحفلات داخل النادى . . وفى المباريات العامة كان هو الذى يعد جمهور المهللين للنادى ، ويستأجر السيارات التى تنقلهم إلى الملعب ، وتعود بهم لتطوف بهم الشوارع مهللين إذا تحقق الفوز للزمالك . . بل إنه دفع مرة ثمن شراء ملابس لعب جديدة لكل فرق النادى . . وأصبح مشهورا بين كل أعضاء النادى . . وكلهم يحبونه . . ويحاولون دائما ارضاءه وتحقيق مطالبه . . ولكنه حب لايمكن أن يصل إلى حد الاعتراف به كلاعب كرة وضمه إلى فريق النادى . . إنهم لايحبونه كلاعب ، ولكنهم يحبونه كشاب

ثرى يمتع النادى بثرائه . . ولم يكونوا يعرفون أنه هو نفسه مقاول ، فقد كان يخفى عنهم صفته كمقاول ولايحدثهم أبدا عن العمليات التى يقوم بها أو يشترك فيها . . ولكنهم كانوا يعرفون عنه أنه ابن مقاول ثرى . . إنه لم يستطع أن يحقق أمله فى أن يكون لاعب كرة معروفاً مشهوراً . . ولم يستطع أيضا أن يتحرر من انتسابه إلى شخصية أبيه المقاول . . إلى أن بدأت أحلامه تذوب . . حتى ارتباطه بنادى الزمالك بدأ يضعف حتى أصبح وكأنه يهرب منه . .

وكان من طبيعة مهدى عبد الصمد التى كونها فى نفسه منذ الصغر هى اصراره على استمراره فى الدراسة حتى نهايتها . . انه ليس فى حاجة إلى شهادة مدرسية أو جامعية تعينه على التخصص فى مهنته كمقاول . . لقد اكتسب من أبيه كل تفاصيل وأسرار المهنة حتى حقق عبقريته كمقاول دون حاجة إلى دراسة . . ولكنه إذا أراد أن يعيش العالم الآخر بعيداً عن دنيا المقاولات ، فهو عالم لايعترف بالعبقرية إلا لمن يحمل شهادة علمية . . وكان ينجح دائما فى كل الامتحانات المدرسية ، وفى بساطة دون أن يحتاج للتفرغ للمذاكرة . . إنه يذاكر كأنه يتفرج على مافى الكتب أو يتفرج على المدرسين . . وذكاؤه تكفيه الفرجة لينجح به فى أى امتحان . . وعندما انتهى من دراسته الثانوية استمر فى الدراسة الجامعية . . ولكنه لم يلتحق بكلية يستكمل فيها ما تحتاج إليه مهنته كمقاول من علم أو على الأقل من معلومات . . ككلية الهندسة أو كلية التجارة . . ولكنه اختار أبعد دراسة عن مهنته والتحق بكلية الاداب . . انها فى تقديره أقوى الكليات فى فتح أبواب الشهرة . . قد يشتهر كعالم أدبى كما اشتهر طه حسين . . وقد يشتهر كتوفيق الحكيم الذى لم يعرف عنه أنه رجل قانون رغم أنه درس فى كلية الحقوق ولم يشتهر إلا بعد أن درس الأدب فى باريس . . وقد يصل إلى أن يكون فنانا إذاعيا أو تليفزيونيا حتى يصل إلى السيطرة على الاذاعة أو التليفزيون كما وصلت سامية صادق . .

وقد عاش مهدى عبد الصمد فى الجامعة كعادته بفصل فصلا تاما

بين الدنيتين اللتين يعيشهما : دنيا المقاولات ، والدنيا الجامعية . . فهو يتردد كل يوم على مكتب المقاولات دون أن يكتشف زملاؤه فى الجامعة هذا المكتب أو يدعو أو حتى يسمح لأحد منهم بلقائه هناك . . إنه لايلتقى فى مكتب المقاولات إلا بمن يحتاج اليه عمله كمقاول . . ثم يذهب إلى الجامعة ، وكأنه مجرد طالب ، ولاحديث له بين زملائه إلا كطالب . . لايحاول أن يتباهى بينهم بأنه يتميز عنهم كصاحب مهنة عبقرى يكسب اموالا ضخمة . .

وقد عرف فى الجامعة شلة من الطلبة تدمن لعب الشطرنج . . وبدأ يسائل نفسه . . لماذا لايلعب الشطرنج . .إن الانسان يخطو فى الحياة وكأنه يلعب الشطرنج . . وعالم المقاولات كأنه عالم يقوم على مباريات فى الشطرنج . . والمقاول الذى يستولى على العملية ، أو على الصفقة ، فكأنه يصيح فى وجه بقية المقاولين . . كش . . ملك . . والاستيلاء على العملية بين المقاولين هى كالاستيلاء على الملك الذى يحميه الخصم فى لعب الشطرنج . . أى أن كل من ينجح فى الحياة أو فى المقاولات يمكن أن ينجح فى لعب الشطرنج . . ولاشك انه ناجح . . وأنه عبقرى . . ويستطيع بعبقريته أن يهزم كل لاعبى الشطرنج فى المباريات التى تقام فى مصر . . ويشتهر . . بل قد يستطيع أن يتقدم إلى المباريات العالمية ويفوز على هذا اللاعب الروسى الذى يفوز دائما على كل لاعبى شطرنج العالم . .

وقضى سنوات وهو يقضى كل أوقات فراغه فى لعب الشطرنج ، بل انه كان يقرأ كتبا عالمية تحمل كل أسرار اللعبة . . ولكنه ظل دائما لاعبا عاديا قد يهزم بعض اللاعبين ولكن الأغلبية تهزمه . . وخرج من لعبة الشطرنج بعد أن تخرج من الجامعة حاملا الليسانس . .

ولم يخطر على باله أن يبحث عن وظيفة بعد تخرجه ولا أن يحاول الاستفادة من الليسانس الذى حصل عليه فى احتراف اى مهنة أخرى . . وأصبح مضطرا أن يجاهر بأنه مقاول . . ولكنه ظل كما هو يفصل بين

حياته فى دنيا المقاولات . . وحياته فى الدنيا التى يبحث فيها عن شخصية تعرف وتشتهر كشخصية عامة . . ويتمنى أن تكون شخصية فنان . . وزوجة أبوه ابنة مقاول آخر . . ولم يكن يتمنى مثل هذا الزواج . . كان يتمنى أن تكون زوجته ابنة رجل مشهور فى الحياة العامة أو تكون هى نفسها مشهورة . . ولكنه كان مضطرا الى الاستسلام لأبيه . . فقد كان المقاول الآخر والد زوجته قد فاز بعملية مقاولات كبيرة منتصرا على أبيه الذى كان يحاول أن يفوز بنفس العملية . . ثم اراد أبوه أن يشاركه فى هذه العملية . . فتقدم طالبا ابنته لابنه . . حركة من حركات لعبة الشطرنج . .

والواقع أن وضع أبيه كمقاول بدأ يضعف . . وبدأ الباب الواسع يضيق فى وجهه . . ربما لأنه شاخ ولم يعد يتحمل ثقل كل هذه المسئوليات . . وكان يجب أن يتحرك مهدى عبد الصمد وحده حتى يعيد بناء القوة التى ضعفت . . قوته كمقاول . . فأخذ زوجته وسافر إلى البلاد العربية . . واستطاع بسرعة أن يفوز بعملية فى كل بلد مر به . . واستطاع خلال سنوات قليلة عابرة أن يجمع الملايين . .

ولم يتغير . . كان يقضى يومه فى مجال عمله كمقاول ، ثم يعود إلى البيت قبل أن يحل المساء . . ويجلس بعيدا عن زوجته يفكر فى الشخصية الأخرى التى يريدها لنفسه . . ويفضلها شخصية فنان . . إن الفن هو الطريق الواسع السهل لبناء الشخصية العامة . .

ووجد نفسه يبدأ فى كتابة الشعر والزجل . . ربما لأن الحياة وهو مهاجر وراء عمله فى البلاد العربية ليس فيها مجتمع مفتوح لكل الفن . . إن اقوى فن فى هذا المجتمع لايزال هو الشعر . . ولعله تأثر بهذا المجتمع فبدأ يكتب الشعر . . وان كان لايكتب شعرا ولاحتى مجرد زجل . . انه يكتب وكل ما فى خياله انه يكتب أغنية . . لاشك أنه يملك موهبة كتابة الأغانى . . فهو منذ صباه وهو يحفظ كل كلمات الأغانى التى يسمعها ويتذوقها . . وقد يصل به هذا التذوق الى أن يكتب مثلها بل وأرقى من مستواها . .

وكتب عشرات من الأغانى . . وكان يتصور مع كل أغنية المطرب أو المطربة التى ستغنيها . . بل كتب أناشيد وطنية يغنيها الشعب كله . . وكان يحتفظ بما يكتب فى درج مكتبه فى انتظار أن يعود الى مصر . . إنه لم يفكر ابدا فى ألا يعود الى مصر . . أى أن يهاجر ويركز كل عمله فى الخارج . . لقد ترك مصر سنوات ليجمع رأس المال الذى يستند اليه ، والذى كان قد ضعف فعلا فى أواخر أيام أبيه . . وقد استطاع أن يجمع من الخارج رأس مال ضخم . . جمع الملايين . . ولكن مالا يعرفه صغار المقاولين والأغنياء منهم هو أن استغلال رأس المال داخل مصر أسهل ويدر أرباحا أكثر من استغلاله فى الخارج . . المهم أن يكون معك هذا الرأس مال . . وسيعود إلى مصر لاستغلاله فى داخلها . .

وقد ارسل زوجته وولديه الى مصر وسافر وحده الى اوروبا مارا بسويسرا وفرنسا وانجلترا قبل أن يعود الى مصر . . ان رؤوس الأموال الضخمة التى جمعها يحتفظ بها فى بنوك أوربا . . وليس له فى مصر إلا ما يحتاج اليه من رأس مال . . وهناك عشرات الطرق للتعامل مع رأس ماله الموضوع فى أوربا وهو مقيم فى مصر . . وكان وهو فى جنيف ـ فى سويسرا ـ يمر على صالات ألعاب القمار لمجرد الفرجة . . إنه لم يسبق له أن لعب القمار بادمان أو بتعمد السعى إلى المكاسب الضخمة . . انما كان يلعب مع الأصدقاء أحيانا لمجرد الضحك والتسلية . . وتعلم لعبة الكونكان والبوكر والشايب . . و . . و . . منذ صغره لمجرد التسلية . . ولكنه وهو فى جنيف يطوف بصالات القمار بدأ ينتابه احساس بأنه يستطيع أن يكسب كل هؤلاء اللاعبين . . لماذا لايجلس بينهم ويتحداهم بعبقريته . . انه دائما يكسب فى حياته ، فلماذا لايكسب فى القمار ، وهو يرى أنهم يلعبون بمبالغ ضخمة قد تتعدى الآلاف وقد تصل الى المليون . . ولكن لايهم . . ان لديه ما يقامر به على أى مبلغ . . وبدأ يلعب . . لعب الروليت . . والبوكر . . وعشرات من ألعاب القمار . . بل أنه تعلم لعبة البريدج . . إنها لعبة العقول العالمية . . فلماذا لايثق فى أن عقله فى مستوى هذه العقول العالمية ويستطيع

أن يهزمها وينتصر حتى على عمر الشريف ويصبح اشهر منه عالميا لا فى التمثيل السينمائى ولكن فى لعبة البريدج . .

ولعب كل أنواع القمار وخسر فى كل اللعبات حتى أصبح يستقبل كما يستقبل أصحاب آبار البترول . . مغفل ثرى . . كم خسر . . ربما أكثر من مائتى الف دولار . . تكاد تقترب خسارته على المليون . . وبدأ يبتعد عن لعب القمار بعد أن اقنع نفسه أنها لعبة تقوم على الحظ لا على عبقرية الذكاء . . وهو لايكسب الا بذكائه لا بالاستسلام للحظ . . ولايهم ماخسره من آلاف الدولارات . . انه يستطيع أن يعوضها بعملية واحدة يقوم بها بعد أن يعود الى مصر . .

وفعلا . . كانت اول عملية مقاولات وصل إليها بعد أن عاد إلى مصر ميزانيتها خمسة ملايين جنيه يأخذها من الحكومة . . من أموال الدولة . . وهى ميزانية توضع على أسس مدروسة . . ثلثها هو ما تتكلفه العملية كلها . . والثلث الثانى يدفع تكاليف التعامل مع المسئولين كبيرهم وصغيرهم . . أى تدفع كرشاوى . . والثلث الباقى الخالص له . . لقد استرد بعملية واحدة أضعاف ما خسره فى صالات القمار . .

ويعيش كما تعود . . كل نهاره يعمل كمقاول ولايرى الا من يحتاج اليهم عمله . . وابتداء من غروب الشمس يعيش البحث عن الشخصية العامة المشهورة . . خصوصا إذا كانت شخصية الفنان . . وقد عاد الى مصر وأهم ما يشغله هو بناء شخصية الشاعر كاتب الأغانى . . ولكن كيف يصل بالأغانى التى كتبها الى هذه الشخصية . . كيف يصل الى وضع أغانيه على لسان المطربين والمطربات ويحرك الملحنين لوضعها فى نغمات الموسيقى وكأنهم وهم يعزفون أغانيه ويغنونها يعزفون ويغنون له . .

إنه يعرف الأستاذ باهر مصطفى أشهر كاتب أغانى باللغة العربية وفى العالم العربى كله . . لقد التقى به مرات فى الليالى التى يجمع فيها كبار الأدباء والفنانين . . وقد التقى بالأستاذ باهر وقال له كأنه يطلعه على سر أنه

كتب مجموعة من الأزجال يعتقد أنها يمكن أن تكون أغنيات ، ولكنه لايدرى كيف يعرضها على المطربين وعلى الملحنين . . وكيف يختار بينهم . . ويريد منه أن يطلعه ويفتح له الطريق . .

ورد الاستاذ باهر وهو يرفع الكأس عن شفتيه :

- إن كل مطرب أو مطربة لها لون خاص من الأغانى ، ويجب أن اقرأ أزجالك أو أسمعها لى حتى أقول لك من تختار لتعرضها عليه . .

واعتذر مهدى عن قراءة أزجاله له . . أقنع نفسه انه يستطيع أن يشعر ولكنه لايستطيع أن يلقى الشعر . . كما كان المرحوم أحمد شوقى . . وجمع كل الأغانى التى كتبها وأعطاها مكتوبة للأستاذ باهر حتى يراجعها . . وكان يدعوه كل ليلة تقريبا ويوفر له كل مايوفر له سعادته ونشوته فى لياليه . . ولكن الليالى تمر ، والاستاذ باهر يعتذر له بأنه لم يقرأ بعد أزجاله . . وقد تعمد مهدى بحكم معرفته باحتياجات السوق أن يقدم للاستاذ باهر كثيرا من الهدايا . . ان سوق الفن لايختلف فى التعامل معه عن سوق المقاولات . . ولكن الأستاذ باهر لايزال يعتذر . . إلى ان قال له فى ليلة :

- انى اعرف أنك مشغول دائما بانتاج فنك . . وهى مشغولية لاتتيح لك الوقت لتقرأ أزجالى . . ولو تركت تفرغك لانتاجك الفنى للاهتمام بانتاجى أنا فان ذلك قد يكلفك خسائر فى رزقك . . فاسمح لى أن أعوضك عما يمكن أن تخسره . . ثم مد يده وناول الأستاذ باهر مجموعة من أوراق النقد . . ألف جنيه كاملة . . وفى بساطة اخذ باهر المبلغ وهو يعد أوراق النقد ، ثم قال من خلال ضحكاته :

- يادوبك ثمن سطر واحد من أغنية تخطر على بالى . .

وبعد يومين جاء الأستاذ باهر يقول له وهو ينظر اليه فى اشفاق مع ابتسامة كأنها ابتسامة ساخر :

- إن كلماتك تعبر عن مواضيع رائعة ، ولكن ينقصها كل ما يتطلبه الشعر أو الزجل أو الأغنية من أوزان ، بل وأيضا من حروف تتم بها الكلمات . .

وقال مهدى فورا ودون أن يناقشه فيما قاله كأنه يعترف فعلا بأنه لايعرف شيئا عن الأوزان :

- كن استاذى وصحح لى أوزانى . .

وقال الأستاذ باهر ضاحكا :

- قد أكون استاذا فى إطلاق أشعارى ، ولكن لم أكن أبدا أستاذا فى تصحيح أشعار الغير . .

وقال مهدى فى استجداء :

- لاتعتبرنى من الغير . . اننا أصدقاء . . وكل صديق أستاذ على صديقه . . أنا أستاذك مثلا فى المقاولات وأنت أستاذى فى الشعر . . ولكن لن تكون أستاذا مجانيا ، كما أنى لايمكن أن أبنى لك بيتا مجانا . . وكل تعب له ثمنه . .

ثم قام من جانبه بسرعة ، وعاد اليه يحمل مبلغ الفين من الجنيهات . . وقال مبتسما فى رجاء وهو يناوله أوراق النقد :

- صحح لى ولو أغنية واحدة تختارها مما كتبته . .

وقال باهر ضاحكا :

- كأنك تغرينى بأن أصحح لك كل ماكتبته . .

ومر أكثر من أسبوع وعاد اليه باهر وجلس أمامه يلقى الأغنية التى أعدها له . . ومهدى مبهورا . . دهشا . . حائرا . . ان كل الكلمات التى

يسمعها ليست كلماته . . وكل الموضوع الذى تدور حوله الأغنية ليس له علاقة بأى موضوع كتبه . . وقال فى حيرة :

ـ هل هذا هو شعرى بعد التصحيح ؟

وقال باهر وقد بدأ يضحك :

ـ إنه من وحى كلماتك . .

ولم يرد مهدى . . انها لايمكن أن تكون حتى من وحى كلماته ولكنه مد يده ليأخذ من باهر الورقة التى كتب فيها كلماته . . ولكن باهر ظل محتفظا بالورقة قائلا :

ـ كأنى كتبت أغنية جديدة لك :

وقال مهدى وقد بدأ ينظر إلى باهر كأنه يتفق معه على عملية مقاولات :

ـ كم تأخذ ثمنا للأغنية ؟

وقال باهر بلا مبالاة :

ـ هذا يعتمد على من يشتريها . . كم يستطيع أن يدفع . . بل إنى أحيانا أعطى أشعارى مجانا ليغنيها مطرب جديد لايملك ما يدفعه . .

وظل مهدى محدقا فى وجه باهر . . لاشك أنه يعلم انه مقاول ثرى ، وهو يعامله كأنه مقاول فن يتعامل مع زبون ثرى كما يتعامل هو مع الأثرياء . . انه يستطيع أن يقول لباهر ببساطة إنه عدل عن احتياجه لتصحيح ما يكتبه . . انها كانت مجرد لعبة يتسلى بها ، وأنه لايريد هذه الأغنية . . ولكنه أحس بارتباطه بالمشروع الذى بدأ فيه . . مشروع أن تكون له شخصية كاتب الأغانى المشهور . .

وقام صامتا وابتعد فى داخل البيت وعاد يحمل الفين من

الجنيهات . . انه يكون بذلك قد دفع خمسة آلاف جنيه ثمنا لهذه الأغنية التى صححها له باهر . . لايمكن ان يكون ما يناله من بيع أغانيه أكثر من ذلك . . وأخذ باهر المبلغ بلا فرحة . . وبلا كلمة شكر . . ولوى شفتيه كأنه يعلن خيبة أمله . .

وقال مهدى كأنه يبدأ الخطوة التالية :

ـ أى مطرب ترشحه لتعرض عليه هذه الأغنية ليغنيها . .

وقال باهر فى برود ، وكأنه لايريد ان ينزل إلى هذا المستوى :

ـ إنى أعتز بنفسى ، ولا أعرض الأغانى على أحد ، بل يجب أن يأتى إلى المطربون ليستجدونى . . فانتظر إلى أن يأتوا إلىّ واختار بينهم . . وطبعا ستعرف من أختاره . .

وبعد أسابيع قال له باهر :

ـ لقد اخترت المطربة أنعام لتغنيها . .

وفرح مهدى . . ان المطربة أنعام ليست المطربة الأولى فى مصر ، ولكنها مطربة معروفة لها جمهورها . . وبعد حديث طويل سأل باهر :

ـ هل اتفقت معها على الثمن الذى تدفعه ؟

وقال باهر وهو ينظر إليه بامتعاض :

ـ أى ثمن ؟

ورد مهدى كأنه يلومه :

ـ ثمن الكلمات . . حق مؤلف الأغنية . .

وقال باهر كأنه يتهمه بالجهل . .

- اننا لانأخذ ثمنا من المطربين والمطربات انما نكتفى بحق الأداء العلنى الذى يعود الينا . . ومحمد عبد الوهاب نفسه لايمد يده إلى أى مطرب أو مطربة يلحن لها . . ويكتفى بالآلاف التى تعود عليه من حق الاداء العلنى . . واذا كنت انت قد دفعت لى أتعابى نظير اعداد هذه الأغنية فقد قبلتها منك لأنك لست مطربا ، ولاأعرف كيف ستستغل كلماتى حتى أشاركك فيها . .

واستسلم مهدى ثم قال :

- ولكنى لا أعرف الست انعام . .

وقال باهر فى برود :

- سأعرفك بها . .

وبعد أيام حدد له موعدا ليزورا معا المطربة انعام . . واهتم مهدى بهذه الزيارة . . واختار اشيك بدلة ليرتديها . . لقد كان يتعمد دائما أن يختار افخم واشيك البدل والقمصان والكرفتات خلال جولاته فى أوربا حتى يعرف بأنه أوجه وأشيك رجل مصرى . . بل انه اشترى مرة زيا مخصصا للعب الجولف رغم أنه لايلعب الجولف لمجرد أنه زى غال أنيق . . ربما كان يتعمد أن يتغلب على عقدته النفسية تجاه ابيه الذى لايزال يظهر بالجبة والقفطان . . والجلابية الحرير . . يريد أن يقول للناس أن المقاول يمكن أن يكون من الوجهاء . .

وقال الأستاذ باهر وهو يقدمه لأنعام :

- ان له الفضل فى كتابة هذه الأغنية . .

انه لم يقل انه مؤلف أو صاحب الأغنية . . وقد استقبلته أنعام فى نوع من التعالى . . اعتبرته مجرد معجب من المعجبين بأغانيها . . وكانت

وهى تتحدث عن الأغنية توجه حديثها كله إلى باهر وتتداول معه الكلمات وتحكى له عن اللحن الذى اختارته . .

وقد حاول بعد ذلك أن يوثق علاقاته بأنعام . . علاقة عمل . . ولكنها دائما متعالية تتجاهله . . وعندما قال لها مرة انه مؤلف هذه الأغنية ضحكت كأنها تسخر من تفاهته . . وقد قدم لها كثير من الهدايا الغالية . . مرة أرسل لها سجادة عجمى . . ومرة ارسل لها خاتما يحمل فصا من الماس . . وكل ما استفاده هو انها أصبحت اكثر ترحيبا به مع احتفاظها بالتعالى عليه . . وقالت له مرة :

- متى أحى لك حفلة . . الا تقيم حفلات فى بيتك ؟

كأنها تريد أن ترد له هداياه بالتبرع له باقامة حفلة تغنى له فيها . . وقد فكر فعلا فى اقامة حفلة كبيرة فى بيته ولو انه كان يتعمد دائما أن يبعد حياته الاجتماعية عن بيته . . يبعدها عن زوجته المتأخرة إبنة المقاول . . ولكن قبل أن يحدد موعدا لاقامة هذا الحفل . . أذيعت الأغنية . . ولكنه فوجىء وهى تقدم فى الاذاعة بالإعلان انها اغنية من كلمات الأستاذ باهر مصطفى . . ان اسمه لم يذكر مع أغنيته . .

واندفع فى جنون المغتاظ يبحث عن باهر . . انه منذ أسابيع وهو متباعد عنه كأنه يهرب منه . . ولكنه استطاع أن يجده ويصرخ فى وجهه بالتليفون :

- أين اسمى مع أغنيتى ؟

وقال باهر فى برود :

- لقد الححت على انعام أن تضع اسمك ، ولكنها أصرت على الرفض . . انها تقول أن الأغنية كلها من كلماتى التى يعرفها الجمهور ، ولايمكن أن يصدق انها كلمات شاعر آخر . . ثم انها تريد ان تعتمد على

أسم شاعر معروف مشهور . . والحقيقة انى وجدت انى استطيع أن أبيع اى شىء إلا أن أبيع اسمى من فوق كلمات أشعارى . . ولكن لنجرب أغنية أخرى لعلى استطيع أن أضع عليها اسمك . .

وصاح مهدى :

لا . . لا اريد ان ارى وجهك . .

والقى سماعة التليفون كأنه يشطب أملا من آماله . .

ومضت أيام وهو مغتاظ من فشله . . ثم بدأ يهدأ . . لايهم ما أنفقه على هذه الهواية التى طرأت عليه . . انفق الالاف . . ولكن الحمد لله . . لقد وصل إلى عملية مقاولات جديدة تدر عليه الملايين . . ثم ربما كان الله يرعاه وهو يحرمه من نشر اسمه ككاتب اغانى . . هذا فى صالحه . . فان الناس كان لايمكن أن تقدره كمقاول ، وهو يكتب الأغانى . . ان الفن لايدخل فى تقدير رجال الأعمال . .

* * *

ولكن طبيعته عادت تلح عليه أن يكون صاحب شخصية عامة مشهورة . . شخصية فنان أو أديب . . وبدأ يسائل نفسه . . لماذا لايكون كاتبا . . كاتب قصة . . إنه منذ صباه وهو يهوى قراءة القصص ويعيش كله فيما يقرأ حتى انه كان تلقائيا يحفظ بعضها كلمة كلمة خصوصا القصص البوليسية كقصص « روكامبول » و « أرسين لوبين » و « الفرسان الثلاثة » . . وله فى الحياة الواسعة التى عاشها وطاف خلالها العالم عشرات الأحداث التى شهدها ويمكن أن يرويها فى قصص . . ثم إن كتابة القصة ليست فى حاجة الى دراسة الموازين او الارتباط بالقافية ككتابة الشعر . . أى انه يستطيع ان يكتب قصة دون أن يحتاج لمن يراجعها ويصححها له . .

وبدأ يقضى كل أوقات فراغه فى كتابة قصة . . وكانت قصة بوليسية . . ومضت شهور ، وهو لايزال يكتب فيها . . وبعد أن انتهى منها استطاع أن يتعرف على الأستاذ ابراهيم المرجوشى الناشر وصاحب دار المستقبل للطباعة . . وقد أمضى فترة وهو يحاول أن يقيم صداقة خاصة مع الأستاذ ابراهيم بكثرة السهرات المرحة التى يدعوه إليها . . انه كرجل أعمال يعلم انه يجب أولا أن تقيم صداقة خاصة مع من تحتاج اليه حتى يسهل بعد ذلك التعامل معه . .

وبعد أن توطدت صداقته بالأستاذ ابراهيم . . عرض عليه القصة التى كتبها ، وطلب منه أن يطبعها وينشرها ويوزعها له . . ووعده ابراهيم وأخذ منه أوراق القصة . . وإن كان قد فوجىء بأن مهدى يكتب القصة رغم انه كان يتعمد اطالة الحديث معه عن الأدب والأدباء . .

وبعد أيام قال له الأستاذ ابراهيم وهو يبتسم له ابتسامة مفتعلة كأنه ينافقه :

ـ لقد قرأت القصة . . انها فعلا قصة ممتعة . . ولكنى فى الواقع لا استطيع ان أطبعها لك فى كتاب . . فاننا لانستطيع أن نطبع الا كتب الكتاب المشهورين . . حتى لو كانت كتبا لقصص تافهة ، ولكن شهرة الكاتب تضمن لنا على الاقل استرداد قيمة التكاليف والا تكبدنا خسائر ضخمة . . فأنت تعلم مدى ارتفاع أسعار الورق والحبر واجور عمال الطباعة وقيمة استهلاك الالات . .

وقال مهدى وهو ينظر الى ابراهيم فى استجداء :

ـ وماذا افعل وأنا أريد طبع قصتى فى كتاب ؟

وقال ابراهيم فى بساطة :

ـ تحمل المسئولية وحدك . . على الأقل مسئولية الكتاب الأول . .

وقال مهدى فى إلحاح :

ـ وكيف أتحمل هذه المسئولية . .

وقال ابراهيم وهو ينظر إليه فى اشفاق :

ـ تدفع قيمة تكاليف الطبع بما فيها ثمن الورق . .

وقال مهدى فورا :

ـ مستعد . .

وقال ابراهيم وهو لايزال مشفقا عليه :

ـ وتدفع كل المبلغ مقدما . .

وصاح مهدى :

ـ مستعد . .

وقال ابراهيم وقد بدأت لهجته ترن كلهجة من يعقد صفقة :

ـ كم نسخة تريد أن تطبع من الكتاب ؟

وفكر مهدى برهة ثم انطلق فى حماس كأنه يتباهى بنفسه :

ـ عشرة آلاف نسخة . .

ولم يقل ابراهيم أن المفروض ان يطبع من الكتاب الجديد الف أو الفا نسخة ، فاذا تم توزيعها يطبع منها أكثر فى الطبعة الثانية . . ولكنه شد ورقة من أمامه ، وأخذ يسجل عليها بضعة أرقام ثم قال :

ـ ستضطر أن تدفع مقدما عشرة آلاف جنيه . . وإذا زادت التكاليف فستدفع طبعا فاننا لانستطيع ان نتنبأ بالأسعار مقدما . .

وابتلع مهدى ريقه كأنه يهضم المفاجأة ، وكأنه لم يكن ينتظر أن يرتفع المبلغ الذى يدفعه إلى هذا الحد ، ثم قال بصوت خافت :

ـ سأدفع . .

وطبع الكتاب بعد أن اختار مهدى الا يضع أسمه عليه . . أقنع نفسه بأن يختبىء حتى لايعلن صفته ككاتب قصة بجانب صفته كمقاول . . لم لا . . ان محمد حسين هيكل باشا كتب قصة « زينب » دون أن يضع عليها اسمه حرصا على مركزه كرجل سياسة . . ولكنه سيعرف بقصته كما عرف هيكل باشا . . وصدر الكتاب مكتوبا على غلافه بحروف عريضة . . بقلم الكاتب الكبير « إبن زمانه » . . سيعرف الناس قريبا أن إبن زمانه هو مهدى عبد الصمد . .

وقال له الأستاذ الناشر الأستاذ ابراهيم المرجوشى وهما يتحادثان معا فى موضوع توزيع الكتاب :

ـ الحقيقة أنها مسئولية معقدة . . فان المكتبات ترفض توزيع كتب من تأليف كتاب غير معروفين لانها تكلف مصاريف التخزين والعرض والاعلان دون أن يطمئنوا إلى كسب ولا حتى إلى استرداد النفقات . .

وقاطعه مهدى كأنه يعرف مقدما ما سينتهى اليه هذا الحديث :

ـ كم تبلغ تكاليف التوزيع والاعلان . .

وشد الاستاذ ابراهيم ورقة من أمامه دون أن يتكلم ، وأخذ يكتب بضعه أرقام إلى أن قال :

ـ خمسة آلاف جنيه على الأقل . .

ودفع مهدى . .

وقد مرت مدة أصبح بعدها يرى كتابه معروضا وراء زجاج المكتبات . . وقرأ اعلانات صغيرة فى بعض الصحف عن قصة الكاتب الكبير « ابن زمانه » . . ويتصل بالاستاذ ابراهيم بين وقت وآخر يسأله عن عدد النسخ التى بيعت . . ومرت شهور قبل أن يقول له :

- بيعت نسخة . .

ثم شهور اخرى قبل ان يقول له :

- بيعت نسخة ثانية . .

وكان قد أخذ لنفسه مائة نسخة وزعها على اصدقائه ومعارفه كهدايا مجانية . . ثم أخذ مائة نسخة أخرى وزعها أيضا مجانا . . ولكن الذين يوزع عليهم الهدايا لا يتحدثون عن القصة إلا إذا دفعهم إلى ابداء رأيهم فيها . . وبعضهم يعتذر بأنه لم يقرأها بعد وبعضهم يبدو منافقا منتهى النفاق فيما يبديه من راى . .

ومضت شهور طويلة دون أن يوزع كتابه أو يشتهر به . . وبدأ اليأس يزحف عليه حتى قرر ألا يكون كاتب قصة ولا كاتب اى كتاب . . وعندما قال له الأستاذ الناشر أنه مضطر أن يجدد دفع مصاريف التوزيع صرخ فى وجهه :

- كل من يحتفظون بنسخ من هذا الكتاب من حقهم أن يحرقوها او يبيعوها كأوراق دشت لصناعة القراطيس . .

انه لم يفكر حتى فى جمع النسخ والاحتفاظ بها إحتراما لها . .

ولايهم ما أنفقه ليكون كاتب قصة . . إن عمليات المقاولات تزداد نجاحا . . وفيها العوض . .

* * *

إلى أن عرف الممثلة السينمائية منار . .

عرفها فى احدى السهرات التى يقيمها لأهل الفن والأدب . . وقد جاءت مع صديق من الأدباء ولم يبهر لمجرد تشريفها له فهى فى الواقع ليست نجمة سينمائية مشهورة ولكنها معروفة . . ولم تظهر حتى اليوم فى افلام الا فى الأدوار الثانية وأحيانا الأدوار الثالثة . . ولكنه بهر بها هى نفسها منذ رآها . . انها تملك هذا النوع من الأنوثة والجمال الذى يجذبه دائما . . وشخصيتها تجمع بين الجدية والوقار حتى انها تستطيع أن تدخل فى مناقشات فنية جادة تبدو فيها كأنها نجمة براقة من نجوم الفن وعالمة من علماء الأدب . . ولاشك أنها قرأت كثيرا وتثقف نفسها ثقافة ممتازة . . ثم عندما تتفرغ لأنوثتها تكون من أقوى النساء اثارة وخبرة فى الارتفاع بالرجل إلى منتهى متعته كأنها ترتفع به إلى السماء وتدخله معها الى الجنة . لعل شخصيتها هى نفس شخصيته . . فهو أيضا فى منتهى الجدية بالنسبة لعمله كمقاول ، وفى منتهى التفرغ للبحث عن متعته فى حياته الخاصة . .

وتجاوبا وتفاهما منذ اللقاء الأول . . وأصبح يقضى كل لياليه معها فى بيتها . . وأصبحت هى التى تقيم السهرات التى تجمع الأدباء والفنانين فى بيته الخاص الذى يسميه بيت الفن . . ولم يكن يدفع لها ثمنا لكل هذه الليالى التى تعطيها له . . ولكنه عرف بالصدفة ودون أن تتعمد أن تطلب منه انها مديونة وأصبحت مهددة بالحجز عليها . . فتحايل عليها حتى قبلت أن يدفع عنها ديونها . . ودفع خمسين ألف جنيه . . هذا أقل ما يفرضه الواجب عليه بعد ان أصبح رجلها . . وكان أخوها يحاول أن يسافر إلى امريكا ليتم دراسته ، ولكنه لايجد مايوفر له دراسته . . وأخته متحسرة عليه . . فتبرع له بخمسة آلاف دولار حتى يستطيع أن يتعلم فى امريكا . . ثم أن الشقة التى تقيم فيها منار ويقضى فيها لياليه معها شقة متواضعة لاتليق بها ولا تعجبه هو شخصيا . . . فاشترى لها شقة فى مدينة المهندسين وزحمها بكل الاثاث الذى تختاره بذوقها . . لقد اصبحت غرفة

النوم التى تضمهما كأنها ركن من متحف عالمى . .

إنه منذ التقى بها وهو ينفق الكثير من أمواله حولها . . ولكن . . ان واجب الرجل يدفعه إلى أن يضع المرأة فى مستوى الحياة الذى وصل اليه . . مستوى أصحاب الملايين . . وماهو الحب . . انه تبادل تحمل المسئولية بينه وبينها . . الرجل يحمل مسئولية المرأة . . والمرأة تحمل مسئولية الرجل . . وهو لاشك يحبها . .

وقد دفعه الحب الى اكثر . . فهى دائما تشكو له من متاعب عملها فى السينما . . ان كل الأبواب تغلق فى وجهها لأن كل منتج يطمع فى الوصول الى جسدها . . وهى ترفض لأنها متفانية فى الإخلاص له . . وبدأ يسائل نفسه لماذا لاينتج فيلما لها على حسابه . . لم لا . . ان زعيم الاقتصاد المصرى طلعت حرب قام ببناء الفن السينمائى والمسرحى بأموال بنك مصر . . فليبدأ هو ببناء منار كنجمة سينمائية وبعدها يستكمل بناء الفن المصرى كله . .

وبدأ يدفع لانتاج فيلم سينمائى . . والواقع انه لم يكن يتصور أن يدفع كل هذه المبالغ . . انه لم يدرس عملية الانتاج حتى يتأكد من قيمة مايدفعه هنا وهناك . . ولعل منار وهى التى تعتبر مسئولة عما يدفعه مضطرة أن تستسلم لكل مايطلبه المسئولون عن انجاح الفيلم حتى يبذلوا اكثر فى انجاحها . . انه يدفع حتى للصحف والمجلات التى تنشر صور منار ، والصحفيين الذين يكتبون عنها . . رغم أن ما ينشر لايحمل صورة الاعلان . . ورغم ذلك يجب أن يتحمل . . انه مشروع كبير . . وفى كل مساء ينتهى من عمله يذهب إلى منار فى الاستديو . . ويستقبل هناك بترحاب واحترام كبير . . وكان يهنأ بمتعته وهو داخل الاستديو يتفرج على ما يجرى فيه . . إلى أن قالت له منار فى ليلة وقبل أن يضمهما الفراش . .

- أصبحت لا أحتمل كلام الناس عنى وعنك . .

وقال فى دهشة :

ماذا يقولون ؟

وقالت وكأنها تهم بالبكاء :

- انهم لايعترفون بى كفنانة . . أنا مجرد عشيقة لرجل يرضينى بأن ينتج لى فيلما . .

وقال فى حيرة كأنه لم يكن يحسب حساب كلام الناس . .

- وكيف نسكتهم عن الكلام . .

وقالت وهى تسقط وجهها بين كفيها ودموعها تنهمر على خديها :

- ليس هناك الا أن نتزوج . . ان الكلام عن زوجة غير الكلام عن عشيقة . . ولعلى أطلب المستحيل . .

واحتضنها بين ذراعه وقال وهو يضحك كأنه يخفف عنها :

- نتزوج ياحبيبتى . .

وتزوجها فعلا . . ونشر خبر الزواج فى الصحف وعرفه كل من يعرفونه . .

ولم يسأل عن زوجته الأولى . . لقد قال لها أن من حقها أن تطلب الطلاق ، واما أن تعيش زوجة مهجورة . . وقد ترك لها البيت هى وأولادها وأصبحت كل حياته فى البيت الذى اشتراه وأثثه لمنار .

ولكن أحداث أحاسيسه تتغير منذ تزوج . . انه لايطيق انطلاق زوجته فى حرية اتصالها بالرجال . . من يدرى ماذا بينها وبين هذا المخرج ، أو هذا الممثل أو هذا الكاتب . . ان احاسيس الزوج تختلف عن أحاسيس العشيق . . ولكنه يصمت ويتحمل وكلما اختلف مع زوجته ويدخل

معها فى نقاش كأنه معركة . . استطاعت دائما ان تسكته . . أو هو الذى يعود ويستسلم ويسكت . .

والأكثر من ذلك أنه بدأ يلاحظ أن كل من تجمعهم به أعماله كمقاول يستقبلونه وبين شفاهم ابتسامات ساخرة أو مشفقة . . وبعضهم يهنئه بزواجه من منار وهو يضحك . . ثم بدأ يلاحظ أنهم يترددون كثيرا قبل أن يقبلوا العمل معه والاتفاق على الصفقات . . وقد بدأ يبذل مجهود أكبر فى اقناعهم بالتعامل معه بعد أن كان يحوز أكبر تقدير وثقة بين المقاولين . .

وانتهى الفيلم . . وعرض فى دور السينما . . وفشل فشلا ذريعا . . لقد حاولت منار ان تقنعه بأن الأفلام تحتاج الى عرضها مدة طويلة تصل الى سنوات قبل أن تحقق أرباحها . . ولكنه اقتنع بان هذا الفيلم لن يحقق له أى ربح ولن يسترد أبدا شيئا مما أنفقه عليه . . لقد انفق مبلغا طائلا . . بين مائتى الف . . ثلثمائه الف . . قد يصل ماخسره الى نصف مليون جنيه . . كيف يستطيع أن يعوض هذه الخسارة من عمليات المقاولات وقد بدأ يفقد الثقة من التعامل معه كمقاول . . انهم لايريدون أن ينسوا انه تزوج هذه المرأة . . منار . . وهذا المجتمع الذى يجمع أصحاب الملايين من كبار المقاولين ورجال الأعمال ، يعترف للرجل فيه بأن يمتع نفسه بأى امرأة مهما كلفته متعته . .

وكلما وصل الرجل منهم الى امرأة صعبة كان من المستحيل الوصول اليها قدره هذا المجتمع اكثر ورفع فوق رأسه العلم كأكبر واشطر واحد بينهم . . اما إذا تزوج واحدة من تلك النساء فهو يسقط مباشرة إلى حضيض هذا المجتمع . . ان الزواج غير ممارسة المتعة . .

ماذا يفعل حتى يسترد قيمته كمقاول ويعوض ما كلفته منار من خسائر ؟ !

وقاده تفكيره الى أنه يجب أن يهجرها . . أن يطلقها . . ولعله كان قد

شبع منها حتى بدأت تتخم حياته . . وطلقها بعد أن دفع لها مبلغا كبيرا حتى يسكتها عنه ولاتقدمه للمحاكم . .

وعاد إلى بيته وزوجته وأولاده . . واستطاع أن يسترد قيمته كمقاول . . ولكن مع السنوات بدأت طبيعته تعود وتثير فيه أمنيته بأن يكون شخصية عامة مشهورة . . شخصية أديب وفنان . .

ومن يدرى ؟ !

المحتويـــــات

	الصفحة
١ ـ كانت صـــعبة . . ومغـــرورة . .	٣
٢ ـ أحـــلام ابن الشحــــاذ . .	٣٦
٣ ـ نـــائم وهو صـــــاح . .	٥٠
٤ ـ نوع آخـر من الجنـــون . .	٥٩
٥ ـ رأس غــــير راســـــى . .	٧٠
٦ ـ هـــو . . والحمـــــار . .	٨٣
٧ ـ وفشلت فى الطـــريق الآخـــر . .	٩٣
٨ ـ الطـــريق الأقـــــرب . .	١٠٩
٩ ـ وكأنـــه مـــــات . .	١٢٢
١٠ ـ أرى أمى معلقة فى أذنيـــك . .	١٣٩
١١ ـ البحث عن الشخصية الأخـــرى . .	١٥١

مطبـــــوعـات
مركز الأهـــرام للترجمـة والنشر

■ كتب للأطفال والنشء :

● فى مجال العلوم :

١ ـ الموسوعة العلمية الأولى للأطفال

(ترجمة : د . محمد امين سليمان)

٢ ـ طرائف والت ديزنى بالكومبيوتر

(ترجمة : د . أيمن الدسوقى)

٣ ـ سلسلة علماء العرب :

○ ابن النفيس

(مكتشف الدورة الدموية الصغرى)

○ ابن الهيثم (عالم البصريات)

○ البيرونى (عالم الجغرافيا الفلكية)

(سليمان فياض)

● فى مجال التربية البدنية والرياضية :

٤ ـ موسوعة جوفى الرياضية :

○ السباحة والغطس .

○ الألعاب الأوليمبية .

○ ألعاب الأطفال .

(ترجمة : نـ ـ المستكاوى)

● فى مجال ترقية المهارات والخيال :

٥ ـ ألوان ألوان (حسين أبو زيد)